فلسطين:
من هنا بدأت الحضارة

فلسطين: من هنا بدأت الحضارة

من العصر الحجري القديم إلى العصر الحجري النحاسي

أحمد الدبش

الإصدار الأول 2017 م

عدد الصفحات: 176 / القياس: 17 × 24

ISBN: 978-9933-572-10-5



صفحات

للدراسات والنشر والتوزيع

سورية - دمشق - ص.ب 3397

هاتف: 095 13 22 11 00963

تلفاكس: 013 33 22 11 00963

موبايل: 818 411 991 00963

info@darsafahat.com

الإمارات العربية المتحدة - دبي

ص.ب: 231422

جوال 942 442 528 00971

Darsafahat.pages@gmail.com



الإشراف العام: يزن يعقوب

www.darsafahat.com

facebook.com/darsafahatyazan

أحمد الدبش

فلسطين: من هنا بدأت الحضارة

من العصر الحجري القديم إلى العصر الحجري النحاسي



2017

الإهداء

إلى جثامين الشهداء

المحتجزة في ثلاجات العدو

المحتويات

المقدمة

«لقد ابتلعنا الطُعم، وصدّقنا شعار (أرضٌ بلا شعب لشعبٍ بلا أرض)»
(ديريك كوهين - أستاذ الأدب الإنجليزي في جامعة يورك الكندية)

حرصت الحركة الصهيونية على ترويج الكثير من الأكاذيب والأباطيل في سعيها لتسويغ اغتصابها بلادنا فلسطين. وقد استندت الرواية الصهيونية إلى صياغة معلمنة لرؤية الكتاب المقدس القائلة بأن فلسطين هي أرض الميعاد والأرض المقدَّسة، وأن اليهود هم الشعب المقدَّس، ومن ثمّ، فالشعب المقدَّس لابد أن يعود للأرض المقدَّسة. وصوّر الصهانية وجود الشعب الفلسطيني في أرضه على أنه وجود عابر، وكان مجرد صدفة.

ووصل الأمر إلى حدّ نكران وجود الشعب الفلسطيني على أرضه، وقد تجسّد ذلك في مقولة: «أرض بلا شعب لشعب بلا أرض A Land without a People for People without a Land».

ففي عام 1839، حثّ اللورد شافتسبري [عـُرف باسم السير أنطوني آشلي كوبر، (22 يوليو 1621 – 16 يناير 1683)، كان سياسياً إنجليزياً بارزاً في الفترة بين الملوك، وفي أثناء حكم الملك تشارلز الثاني]. جميع اليهود على الهجرة إلى فلسطين. وفي مقال منشور له بعنوان «الدولة وآفاق المستقبل أمام اليهود»، أعرب عن اهتمامه بالعنصر العبري، وعارض فكرة الذوبان على أساس أن اليهود سيبقون غرباء في كل

الدول التي يعيش فيها غير اليهود. ونظر اللورد شافتسبري إلى اليهود على أنهم يلعبون دوراً رئيساً في الخطة الإلهية للمجيء الثاني للمسيح، وفسّر نصوص العهد القديم بأن المجيء الثاني للمسيح سيتحقّق فقط عندما يكون اليهود قد عادوا للعيش في (إسرائيل) المُسترجَعَة. وانطلاقاً من اعتقاده بأن عليه مساعدة الرب لتحقيق الخطة الإلهية بنقل جميع اليهود إلى فلسطين، جعل كل همّه إقناع الإنجليز بأن اليهود حجر الزاوية من أجل الأمل المسيحي في الخلاص. وبالرغم من وصفه لليهود بأنهم «غلاظ، وقلوبهم سوداء، وغارقون في المعصية، ويجهلون اللاهوت» إلا أن الخطة الإلهية لإنهاء التاريخ والعالم تتطلّب عودتهم إلى فلسطين التي وصفها بأنها «بلاد بدون أمة، لأمة بدون بلاد»، ذلك الشعار الذي حوّلتْه الصهيونية اليهودية – فيما بعد – إلى «أرض بلا شعب لشعب بلا أرض».[1]

تكرّر هذا الشعار كثيراً على لسان جولدا مائير، في تصريحها للصحافة: «لا يوجد شعب فلسطيني... وهذا لا يعني أننا في طريقنا لوضعهم في الميناء، وأخذ أراضيهم... إنهم غير موجودين».[2]

قال موشي دايان، في تصريحه للصحافة: «عندما يكون لدينا التوراة، وعندما نعتبر أنفسنا شعب التوراة، سيكون من حقّنا أن نمتلك الأرض التوراتية، أرض الحكماء القضاة وأنبياء القدس وأريحا وأماكن أخرى».[3]

وقد صرّح بيجن، في أوسلو: «لقد وُعدنا بهذه الأرض، ولنا حقّ فيها.... إن أرض إسرائيل الكبرى ستعود إلى شعب إسرائيل كلها، وللأبد».[4]

1- لمزيد من التفاصيل، يُراجع: أحمد الدبش، يهودية الدولة: الحنين إلى الأساطير، ط1، القاهرة، عشتار للنشر والتوزيع، 2015.

2- جريدة الصنداي تايمز (بريطانيا)، 15 حزيران / يونيه 1969.

3- جريدة جيروزاليم بوست (ــــــ)، 10 آب/ أغسطس 1967.

4- جريدة دافار (ــــــ)، 12 كانون أول / ديسمبر 1978.

لقد هيمنت تلك «الحقيقة» المزعومة على خطاب الدراسات التوراتية، خلال معظم القرن الحالي، وأتاحت مجالاً لتطوير كثير من فرضيات التراث التوراتي، وهذه «الحقيقة» المزعومة أسهمت، أكثر من أيّ شيء آخر، في إهمال وتحقير الشعب الفلسطيني، وثقافته، مع إغفال التاريخ، الذي بقي آلافاً من السنين لفلسطين، ذلك التاريخ الذي تعامى عنه علماء الآثار، بالمعنى الحرفي لكلمة التعامي.

بذلك جرَّدت الدراسات التوراتية لفظ «فلسطين» من أيّ معنى كامن فيه، ولم يعد من الممكن فَهْمه، إلا إذا أُعيد تعريفه، من خلال لفظ ديني، أو لاهوتي آخر، كاللفظ المستعمل للدلالة على «الأرض المقدَّسة»، أو «أرض إسرائيل»، ولكن ما يلفت النظر أكثر من ذلك، أنه في حين أن لفظ «فلسطين» قد يكون مستعملاً، بشكل واسع، على الرغم من تجريده من أيّ معنى لذاته، فإن لفظ «فلسطينيون» باعتبارهم سكان هذه الأرض، هو استعمال نادر للغاية في الدراسات التوراتية، فإن كانت هناك أرض تُدعى فلسطين، فلماذا لا يمكن تسمية مواطنيها بالفلسطينيين؟!!

وإذا أصبحت فلسطين «الأرض المقدَّسة» أو «أرض إسرائيل» تصبح حقوق اليهود الخالدة سارية المفعول فيها، فيصبح بالإمكان الادّعاء بأن فلسطين أرض بلا شعب لشعب بلا أرض، لأنها دخلت الدائرة الحلولية التي تستبعد الآخر. لقد كان الصهاينة يدركون أن الفلسطينيين يعيشون في فلسطين، وأن اليهود المشرّدين يعيشون في الأراضي التي وُلدوا فيها. ولكن الرابطة الأبدية بين الأرض والشعب اليهودي هي التي تجعل اليهود مجرد مشرّدين وشعباً رُحّلاً بلا جذور، رغم وجودهم في أوطانهم في كل أنحاء العالم. وهذه الرابطة هي التي تُنكر وجود الفلسطينيين، وتجعل مطالبهم القومية مسألة هامشية. ولهذا، فإن شعار «أرض بلا شعب لشعب بلا أرض» لا بد أن تتم إعادة صياغته على النحو الحلولي التالي: «أرض مقدَّسة بلا شعب مقدَّس لشعب مقدَّس بلا أرض مقدَّسة». وفي هذه القداسة يذوب الفلسطينيون (شعب غير مقدَّس

لا يتمتّع بالحلول الإلهي)، وتصبح مطالبهم أمراً هامشياً وتافهاً، وقد تحقَّق كل ذلك دون اللجوء إلى أية نظريات عِرْقية فاضحة. [1]

وبهذا، فإن فلسطين ليس لها معنى حقيقيّ خاص بها، أو أية قيمة فعلية خاصة بها، بل تتحوّل إلى حلبة لـ «التاريخ الحقيقي، والموثَّق لإسرائيل». وهذا جوهر الادّعاء بملكية الأرض. وبذلك بدأ الصراع على محو الرواية التاريخية، وإعادة تعريفها بمنظور توراتي.

يقول وايتلام، كثيراً ما جرى إفراغ فلسطين والتاريخ الفلسطيني من أيّ معنى حقيقي، حيث جرى «تجريدها [فلسطين] من الصفة التاريخية»، كما يقول ملمن، أو «طمسها» [إسكاتها] كما أقول أنا. [2]

إن هذا الكتاب الذي سمّيناه (فلسطين: من هنا بدأت الحضارة: من العصر الحجري القديم إلى العصر الحجري النحاسي)، هو كتاب يحاول استكشاف تاريخ فلسطين القديم في العصور الحجرية، فهذه الفترة جرى العزوف عن الإمعان في استكشافها، بل ولا تظهر على الإطلاق في العديد من المنشورات.

وما دفعنا لكتابة هذا الكتاب، ما قاله العلامة كيث وايتلام، إن استعراضاً لفهارس مكتبات الجامعات البريطانية الكبرى (COPAC) بحثاً عن الكُتُب المختصة بشأن تاريخ فلسطين يكشف وجود (278) عنواناً، تنصبّ أكثريّتها على معالجة الفترة الحديثة والنضال الفلسطيني في سبيل إقامة الدولة.. عدد قليل فقط يتناول الماضي القديم. وقد أَلَّف معظم هذه الأخيرة باحثون غربيون مهتمّون بفلسطين في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين من منظور كتابي. غير أن بحثاً مماثلاً عن

1- د. عبد الوهاب المسيري، الصهيونية والعنف، ط2، القاهرة، دار الشروق، 2002، ص (68-69).

2- كيث وايتلام وآخرون، الجديد في تاريخ فلسطين القديمة، ترجمة: عدنان حسن وزياد منى، ط1، دمشق، قدمس للنشر والتوزيع، 2004. انظر الفصل الأول، كيث وايتلام، إعادة اكتشاف فلسطين، ص 23.

كُتُب بشأن تاريخ (إسرائيل) يتمخّض عن (598) عنواناً، أي أكثر من الضعف. والعديد من هذه الكُتُب ينصبّ، بطبيعة الحال، على الفترة الحديثة المفضية إلى عام (1948) وما بعده. ومع ذلك فإن عدداً لا يُستهان به تناول تاريخ بني إسرائيل (ancient israel, israelites)، وقد كتبها مختصّون كتابيون وعلماء آثار. وثمَّ فإن ما هو متاح لأيّ مهتم بـ (تاريخ فلسطين) أقلّ كثيراً ممّا هو متاح لمَن يريد معرفة تاريخ (إسرائيل). [1]

أحمد الدبش

كوبنهاغن 1/ 7/ 2016

1- وايتلام، إعادة اكتشاف فلسطين، مرجع سبق ذكره، ص (19-20).

توطئة

بالرغم من أن بلادنا فلسطين أثارت اهتمام علماء الآثار الأجانب منذ منتصف القرن التاسع عشر، فإن اهتمامهم اقتصر – في بادئ الأمر – على التنقيب عن الآثار العائدة للفترات التاريخية، خاصة البرونزية والحديدية. ولم يبدأ الاهتمام بفترات العصور الحجرية إلا في بداية الثلاثينيات من القرن العشرين.

في سنة 1925 قام شاب إنجليزي هو تورفيل بيتر (F. Turville-Petre) بالتنقيب في كهفَين أعلى بحر الجليل، وكشف عن أول ترسيبات على شكل طبقات في فلسطين، وفي أحدهما عثر على أول بقايا لإنسان ما قبل التاريخ. وكان الاكتشاف الرئيس هو جزء من جمجمة لإنسان نياندرتال في وسط يتميز بمعالم موستيرية أيضاً، ممّا يثبت بدليل ماديّ صحة وجود العلاقة التي سبق تقرير قيامها بين العصر الموستيري في فرنسا والعصر الموستيري في فلسطين. وفي سنة 1928 بدأت دوروثي جارود (Miss Dorothy Garrod) العالمة البارزة في دراسات ما قبل التاريخ بجامعة كمبرديج، سلسلة طويلة من البعثات في الكهوف الفلسطينية استمرت حتّى سنة 1934 تحت الرعاية المشتركة لكل من المدرسة البريطانية للآثار (British School of Archaelogy) بالقدس والمدرسة الأمريكية لبحوث ما قبل التاريخ (The American School of Prehistoric Research). وكان ضمن الاكتشافات البارزة التي قامت بها بعثتها الكشف عن الحضارة الناطوفية الجديدة، وبعض هياكل عظمية كاملة، أو أجزاء هياكل لمستحجرات بشرية. وكان الفرنسيون يقومون في نفس الوقت بنشاط في فلسطين، إذ

أجرى موظف كبير بالقنصلية الفرنسية هو رينيه نيفي (Rene Neuville) سلسلة من التنقيبات في بعض الكهوف الأخرى بفلسطين. [1]

يقول بار يوسف وعمحاي مزار: بدأت أبحاث العصر الحجري بتنقيبات د. جارود (D. Garrod) في جبل الكرمل، ور. نوفيل (R. Neuville) في الضفة الغربية في برية الخليل (1928-1934)، وقد مكّنت تنقيبات الكهوف الملاجئ الصخرية، بالإضافة إلى اكتشاف عدد من المواقع المفتوحة كل من جارود (Garrod) ونوفيل (Neuville) من تأسيس إطار تسلسلي زمني حضاري لمرحلة ما قبل التاريخ في الأراضي المقدَّسة [فلسطين]. والمصطلحات التي استخدموها هي تلك التي اختُرعت في أوروبا الغربية إضافة إلى التقسيم الثلاثي إلى العصر الحجري القديم (الباليوليثي Paleolithic)، والعصر الحجري الوسيط (الميزوليثي Mesolitic)، والعصر الحجري الحديث (النيوليثي Neolithic). وينطوي هذا التقسيم على تطوّر خطّيّ، متأثّراً بالتفسيرات الداروينية للتكيّف البيئي.

وقد استعمل كل من جارود (Garrod) ونوفيل (Neuville) في بناء هذا التقسيم التصانيف الأوروبية. وعلى أيّ حال يجب ملاحظة أنهم تعرّفوا على بعض الصناعات الصوّانية كظاهرة محلية وخدم الإطار الزمني الذي وضعاه علماء ما قبل التاريخ في المشرق الجنوبي حتّى يومنا هذا، رغم إدخال بعض التعديلات عليه منذ أواخر الستينيات.

كان موضوع البحث الرئيس هو الطبقات التي يعود تاريخها إلى أواخر عصر البلايستوسين Pleistocene (من الأشولي المتأخّر terminal Acheulian إلى الصناعات الدقيقة microlitic industries)، وتمثّلت المشكلة الأولى في تعريف الأشولي المتأخّر

1- وليم أولبرايت، آثار فلسطين، ترجمة: زكي إسكندر ود. محمد عبد القادر محمد، مصر، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، 1971، ص 42.

المحلي. والذي جرى إيضاحه بعد ذلك في تنقيبات راست (Rust) في كهف يبرود في سوريا، الذي نشر سنة 1950، وسُمّيت النسخة الأشولية المحلية بالأشولية ــ اليبرودية Acheulo – Yabrudian.

وفي تعريف الموستيرية Mousterian اختارت جارود (Garrod) اسماً يصف مميزاتها، وهو اللفلوزاية ــ الموستيرية Levallois - Mousterian في حين تمسّك نوفيل (Neuville) بالمنهج الفرنسي لابي بوريل (Abbe-Breuil) وآخرين الذين اعتبروا اللفلوازية والموستيرية وحدتين منفصلتين. وقد وصف سياقات العصر الحجري القديم الأعلى لأول مرة بالمصطلحات الأوروبية الأوريغناسية (Aurignaciae) المبكّرة والوسيطة، وذلك حسب لائحة برويل (Breuil) لسنة 1912. ولاحقاً شاع اقتراح نوفيل (Neuville) وأصبح تقسيم المراحل السداسي معيارياً للعصر الحجري القديم الأعلى في فلسطين، وقد عُدّل هذا التقسيم في السبعينات فقط.

مثّلت الصناعات الدقيقة Micrithic industries إشكالية منذ البدء، بسبب ملامحها المشرقية الجنوبية المحددة. ومن أكثرها شهرة الصناعات الناطوفية، والتي تم التعرّف عليها في بداية الثلاثينيات من قِبَل جارود (Garrod) كإبداع محلي أصيل. وتشتمل بقايا الحضارة الناطوفية التي تم العثور عليها في مغاور جبل الكرمل وصحراء فلسطين، وعلى صناعات دقيقة، ونصال مناجل وأحجار رحى ومدقّات ومدافن، والتي فُسّرت كبقايا لمجتمع زراعي. [1]

لقد حصلت الاكتشافات الأولى للحضارة الناطوفية من قِبَل مالون A. Mallon وغارود D. Garod في موقع شبقة في وادي النطوف بفلسطين، وهناك مغارتان في

1- بار يوسف وعمحاي مزار، علم الآثار في إسرائيل: وجهة نظر إسرائيلية، ترجمة: د. حمدان طه، ط1، القدس، المركز العربي للدراسات المعاصرة، 1994، ص (15-16).

جبل الكرمل هما مغارة الواد الكبار (Turville - Petre 1932) و(Garrod et Bate 1937) ومواقع فلسطينية هي عرق الأحمر، أم الزويتنية، عين صخري، اكتُشفت من قِبَل نوفيل (Neuville 1951)، إلى السوية الناطوفية في يبرود في سورية (Rust 1950) والتنقيبات الأخيرة في أريحا (Kenyon 1957) وعين الملاحة (Perrot 1966 - b) والخيام (Echegarary 1966)، وناحال أورن [وادي الفلاح] (Stekeliset,Yizarely 1963) وهذه المواقع أكملت المعلومات المتوفرة حول ذلك العصر. [1]

أمـا حفائر تليلات الغسـول في وادي الأردن جنوب شـرقي أريحا، فقد اسـتمر العمـل فيهـا بمعرفـة الآبـاء اليسـوعيين ثمانيـة مواسـم مـن 1929 إلـى 1938، حيث نقـب الأب أليكسـيس ماللـون (Alexis Mallor) وآخـرون جـزءاً مـن الطبقتيـن العلويتيـن لموقـع مـن العصـر النحاسـي مـن النصـف الأول للألـف الرابعـة قبـل الميـلاد. وكان المنقّبـون الأوّل قد أعطوا للحضارة الغسـولية الحديثـة تاريخاً متأخراً جـداً، غيـر أن المنقّبيـن التالييـن لهـم وهـم الأكويبـل (Koeppel) والأب ماهـان (Mahan) والأب ميرفـي (Murphy) صحّحـوا هـذا التاريـخ علـى الفـور. وقـد أدّت العنايـة بتنقيـب هـذا الموقـع والعثور على صور مرسـومة علـى الجـدران ذات ألوان متعـدّدة إلـى زيـادة تقديرنـا وإجلالنـا للمسـتوى الحضـاري الذي سـاد في فلسـطين منذ ستة آلاف عام. [2]

استناداً إلى تلك الدراسات وما تم تحليله من ملتقطات ومتحجّرات ودراسة تقنية صناعة الآلات والأدوات الحجرية التي عُثر عليها، ثمّ تقسيم العصور الحجرية في فلسطين إلى عدة مراحل زمنية، هي:

1- جاك كوفان، ديانات العصر الحجري الحديث في بلاد الشام، ترجمة: د. سلطان محيسن، ط 1، دمشق، دار دمشق للطباعة والنشر والتوزيع، 1988، ص 23.

2- أولبرايت، آثار فلسطين، مرجع سبق ذِكْره، ص (49-50).

(1) **العصر الحجري القديم (الباليوليت** Palaeolithique) وأصل التسمية يوناني من Palaios قديم وLithos حجر، وهو أقدم العصور وأطولها، وينقسم إلى:

أ- **الباليوليت الأدنى:**

يؤرّخ بين حوالي 1.5 مليون سنة وحتّى 100.000 سنة، وينقسم إلى:

- الباليوليت الأدنى، من حوالي 1.5 مليون سنة – 700.000 سنة. تعاصر ما تسمّى بالآشولي القديم.
- الباليوليت الأدنى الثاني، من حوالي 700.000 – 250.000 سنة خلت، وهو يرادف العصر الآشولي الأوسط.
- الباليوليت الأدنى الثالث، من حوالي 250.000 – 100.000 سنة خلت، وهو يرادف العصر الآشولي الأعلى.

ب- **الباليوليت الأوسط**: يؤرّخ بين حوالي 100.000 سنة وحتّى 35.000 سنة. فيرم في أوروبة، ويرادف الحضارة الموسترية أو اللفلوازية ــ الموسترية.

ت- **الباليوليت الأعلى**: يؤرّخ بين حوالي 35.000 سنة وحتّى 12.000 سنة. فيرم الجليدي في أوروبة.

(2) **العصر الحجري الوسيط (الميزوليت** Mesolithique) والتسمية من Mesos وسط وLithos حجر، بدأ منذ حوالي 12.000 سنة ق.م، وانتهى في حوالي 8000 سنة ق.م. وهو عصر له صفات انتقالية بين عصر الباليوليت الذي سبقه وعصر النيوليت الذي تلاه.

(3) **العصر الحجري الحديث (النيوليت** Nolithique) الاسم من Neos حديث وLithos حجر، بمرحلتيه النيوليت ما قبل الفخار (أ) و(ب)، وما بعد الفخار (8000 – 4000) ق.م تقريباً، وهو عصر الاستقرار والزراعة وتدجين الحيوانات.

(4) **العصر الحجري النحاسي (الكالكوليت** Chalcolithique) واسمه مأخوذ من Chalcos حديث وLithos حجر، يؤرخ بين حوالي 4000 – 3000 سنة ق.م، ويمثّل المرحلة الانتقالية بين عصور ما قبل التاريخ والعصور التاريخية القديمة.

الفصل الأول

إنسان فلسطين الأول

حتّى وقت قريب، كان الاعتقاد السائد أن أقدم بقايا الإنسان العظمية في فلسطين تعود لإنسان من نوع نياندرتال، وهي التي وُجدت في كهوف جبل الكرمل مثل مغارة الطابون ومغارة السخول في فلسطين، ولكن المسوحات الأثرية والحفريات التي جرت في عدة مواقع في فلسطين أبانت أن «الإنسان وُجد في فلسطين منذ أقدم العصور، وأنه عاصر أقدم النماذج البشرية».[1]

الحضارة العبيدية

بالرغم من ذلك، فإننا لم نعثر في بلادنا فلسطين، حتّى الآن، على آثار لإنسان الهوموهابيل، ولحضارة الحصى المعروفة من شرق أفريقية، والمؤرّخة على عصر البليستوسن الأدنى. إلا أن هناك مَن يرى أنه قد عُثر في موقع العُبيدية الواقع إلى الجنوب الغربي من بحيرة طبرية، وعلى عمق 205 أمتار تحت مستوى

1- أنطوان نمنم، المواقع الأثرية بفلسطين في فترة ما قبل التاريخ، دراسات في تاريخ وآثار فلسطين، المجلد الثاني، بدون دار نشر أو بلد، 1984، ص11.

سطح البحر على أقدام ما عرفه علم الآثار حتّى الآن من المخلّفات البشرية في العالم، ما عدا صخور أفريقيا الوسطى. وقد وُجدت هذه المخلفات المتحجرة مَطوية في طبقات جيولوجية، نشطت بعد استقرار الإنسان هناك في عصر البليستوسين الأدنى. وتشير هذه التشكيلات الجيولوجية إلى أن الموقع كان يقوم على شاطئ بحيرة، احتفت بفعل عوامل الطبيعة في الانهدام السوري - الأفريقي الذي يشكّل غور الأردن جزءاً منه. [1]

في عام 1959، وعلى سبيل الصدفة، كشفت الأمطار في منطقة تل العبيد عن بقايا إنسانية، وحيوانية، لفتت أنظار المتخصّصين إلى هذا الموقع، وقد أرجعها مكتشفها ستيكلز M.Stekelis إلى نهايات مرحلة Villafranchian من عصر البيلستوسين.

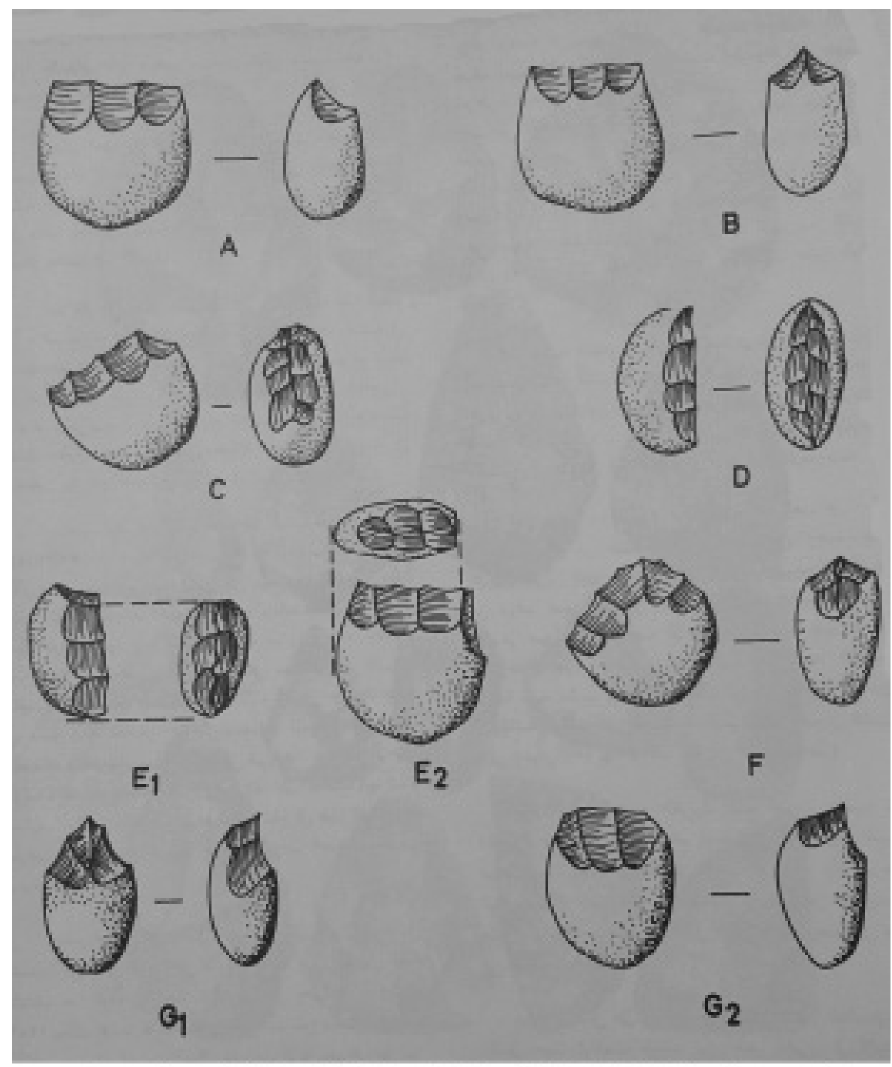
وابتداءً من عام 1960، أسهمت عدة مؤسسات علمية في التنقيب في هذا الموقع منها:

Wenner Gren Foundation The American Philosophical Society, and The Swiss National Fund For Anthropological Research.

وامتد المسح الأثري إلى مساحة 850 متراً مربعاً، حيث تأكد بعد عدة سنوات من العمل وجود بقايا متحجرة لإنسان بدائي، وعظام بعض الحيوانات في طبقة البيلستوسين، وقد قدّرها L.Picard بعصر البيلستوسين المبكر، في حين حدّدها بوردز Bordes بالفترة السابقة لظهور الحضارة الإيفيلية. [2]

1- الياس شوفاني، الموجز في تاريخ فلسطين السياسي (منذ فجر التاريخ حتّى سنة 1949)، ط1، بيروت، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، 1996، ص (13 - 14).

2- سومر (بغداد)، عز الدين إسماعيل غريبة، الحضارة العبيدية في فلسطين، المجلد 45، 1987-1988، ص (99-100).



أدوات حصوية مصنعة (أدوات أبيفلية) من تل العبيدية تعود للمرحلة الأولى من العصر الحجري القديم (معاوية إبراهيم، الموسوعة الفلسطينية)

فالمخلّفات التي وُجدت، كانت عبارة عن قطع لجمجمتين، وسنّ واحد. وبالرغم من أن الآلات الحجرية التي وُجِدَتْ مع هذه المتحجِّرات العظمية، المهشَّمة بفلسطين، تشبه الآلات البدائية التي وُجِدَتْ في مواقع القرد البشري الجنوبي في

أفريقيا، فهناك بعض الشك في مُعاصَرَة الهيكل العظمي، الذي وُجِدَ في تل العُبيدِيَّة، للرواسب التي وُجِدَ فيها.[1]

فالترسيبات التي وُجدت معقَّدة، حصلت على دورتين، وفي كل دورة مرحلتين، حَدَثَتْ فيها ترسُّبات مُستنقعية، وبحيرية، سُمِّيَتْ (Li, Fi, Lu, FU). واحتوت بقايا إقامة بشرية طويلة، وُجِدَتْ آثارها على امتداد طبقات مختلفة. هذا الموقع بكامله، اعتُبِرَ سابقاً للانتقال القطبي المغناطيسي، ماتوياما/ برونة، ممّا يُعطيهِ عمراً، يناهز المليون سنة، ذلك للقسم الأعلى من ترسُّباته. إن الجديد هنا، والأكثر أهمية، ربّما يكون أرضية السكن، التي يجب أن تُؤرِّخ لـ 1.200.000 سنة خلت.[2] فيما يقترح آخرون له تاريخاً قديماً جداً، هو 1.4 مليون سنة، معتمدين على دراسة البقايا الحيوانية. لكن ذلك لم يلقَ قبولاً شاملاً من الباحثين.[3]

تضم الحضارة العبيدية أقدم المكتشفات الإنسانية التي عُثر عليها حتّى الآن في فلسطين. بل وفي ربوع الوطن العربي القديم، فقد كانت الحضارة التي تُعرف بالأبقيلية (نسبة إلى موقع Abbeville في فرنسا)، والمتمثّلة بصناعة الفؤوس الحجرية هي أولى الصناعات التي تميز حضارة الإنسان في العصر الحجري القديم. قبل اكتشاف الصناعة المعروفة بـ «Pebble Culture» في تنزانيا بأفريقيا.

عام 1958، والإعلان عن اكتشاف الحضارة العبيدية بفلسطين، وتمثل صناعة نحت الحصى Pebble أقدم تقنية عرفها الإنسان. والواحدة عبارة عن حضاة أُزيل أحد

1- د. تقي الدباغ ود. وليد الجادر، عصور ما قبل التاريخ، بغداد، مطبعة جامعة بغداد، 1983، ص 41.

2- فرنسيس أور، حضارات العصر الحجري القديم، تعريب: د. سلطان محيسن، ط2، دمشق، مطابع الألف باء ـ الأديب، 1995، ص 68.

3- د. سلطان محيسن، بلاد الشام ما قبل التاريخ في العصر الحجري القديم: الصيادون الأوائل، ط1، دمشق، الأبجدية للنشر، 1989، ص 75.

طرفيها، أو من طرفين متقابلين لتزويدها بحدّ قاطع. أو بشكل يتناسب والغرض من صناعتها. وتُعرف أحياناً بصناعة الفؤوس ذات الوجهين.

وتؤكد المكتشفات التي عُثر عليها في الحضارة العبيدية والمتمثّلة ببعض العظام الإنسانية، والحيوانية، والأدوات الحجرية المتنوّعة، التي صُنعت وفق تقنية مميزة في الشرق القديم أن فلسطين من أقدم مواطن الإنسان. ليس في الشرق القديم فقط، بل وفي العالم كله. كما أن هذه المكتشفات تمدّنا بمعلومات عن حياة الإنسان البدائي الذي عاش في تل العبيد بفلسطين في ذلك الزمن السحيق.

تمدّنا البقايا العظمية المتحجرة التي عُثر عليها في العبيدية، بمعلومات عن الحيوانات التي كانت تعيش في فلسطين في ذلك الزمن السحيق. ومن المعروف أن بعض هذه الحيوانات قد انقرض بينما ما زال بعضها يعيش في فلسطين وتضم البقايا الحيوانية حوالي ثمانين نوعاً منها: الفيل، والزراف، والكركدن، والقوارض،والحصان، والسلاحف، والغزلان، وفرس النهر، ونوع من الأسماك يُعرف بـ Claries. [1]

لقد تغذّت جماعات العبيدية الأولى من صيد الفيل، والحصان، والوعل، والغزال، وفرس الماء، كما التقطت ثمار الزروع، والعظم، واللوز، وغيره.[2]

يحدّثنا توماس طمسن، عن البدايات في سِفْر التكوين الفلسطيني بالقول: تمّ العثور على أقدم بقايا معروفة من البشر في جنوب غرب آسية، مستحاثّات (أحافير) الإنسان المنتصب في فلسطين في عبيدية على الشاطئ الجنوبي لبحر الجليل. تلك البقايا الهيكلية العظمية قُدّر عمرها بحوالي 1.4 مليون سنة. واليوم تم اكتشاف حفنة صغيرة من المواقع (الأثرية) هنا، على طول شاطئ البحر المتوسط وفي وادي نهر العاصي في سورية، حيث تم العثور على بقايا الإنسان المنتصب منذ مليون سنة على

1- سومر (بغداد)، عز الدين إسماعيل غريبة، الحضارة العبيدية في فلسطين، المجلد 45، 1987-1988، ص (100-101).

2- د. محيسن، بلاد الشام...، مرجع سبق ذكره، ص 75.

الأقل. المواقع التي نعرفها من العصرين الآشيولي القديم والأوسط (حتّى منذ حوالي 25000 سنة) تعرّضت لفترات شديدة من الحتّ. كنتيجة لذلك، من المحتمل أن كثيراً من المواقع مدفونة عميقاً في الطبقات السميكة من الرسوبيات. وثمة القليل جداً منها يمكننا معرفته. والقليل الذي نعرفه يظهر بشكل واضح انتشاراً ملحوظاً للاستيطان في أثناء هذه الفترات المبكرة، فالأدوات الفلسطينية من العصر الآشيولي المتوسط تطورت بشكل مستقل عن أشكالها الإفريقية المختلفة. [1]

الهوموراكتوس في فلسطين

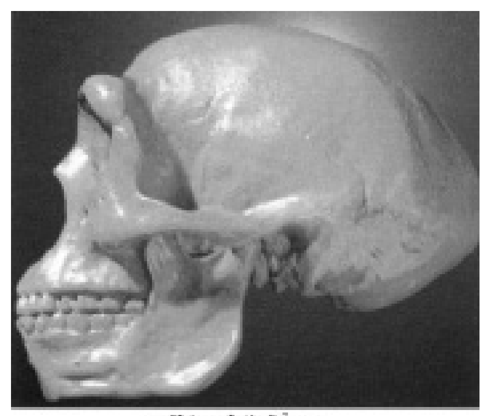
يري د. زيدان كفافي، أن دلائل وجود الإنسان في بلاد الشام عامة، وفلسطين خاصة، تعود إلى حوالي المليون ونصف المليون عام. [2] ويشير د. سلطان محيسن، إلى: أن أقدم آثار الإنسان في بلاد الشام - وبالطبع فلسطين - تعود إلى العصر الحجري القديم الأدنى، الذي بدأ هنا منذ حوالي مليون سنة، واستمر حتّى حوالي (100.000) سنة خلت، وهذا العصر يرادف ما يسمّى في أوروبة بالحضارة الآشولية، ذات الانتشار العالمي الواسع، والتي اشتهرت بتصنيع الفؤوس اليدوية بخاصة، لقد سُكنت منذ بداية هذا العصر بعض مناطق سورية، ولبنان، وفلسطين، من قِبَل إنسان الهوموراكتوس.[3] أي الإنسان الذي يسير منتصبَ القامةِ. وهذه التسمية تعكس صفات مميَّزة، لكنها غير موفَّقة، لأن انتصاب القامة قد حصل قبل هذا النوع، بِعِدَّة

1- توماس طمسن، الماضي الخرافي (التوراة والتاريخ)، ترجمة: عدنان حسين، ط2، دمشق، قدمس للنشر والتوزيع، 2003، ص 185.

2- د. بشار خليف، دراسات في حضارة المشرق العربي القديم، ط1، حلب، مركز الإنماء الحضاري، 2003، ص152، نقلاً عن: مجموعة من الباحثين، الوحدة الحضارية للوطن العربي القديم، دمشق، وزارة الثقافة، 2000.

3- د. محيسن، بلاد الشام...، مرجع سبق ذكره، ص 71.

ملايين من السنين. كما ظهر أيضاً، وانتشر نوع جديد من الأدوات، كانت «الفأس اليدوية»، وهي أداة مصنَّعة من نواة، أو عقدة حجرية، لها أشكال مختلفة بيضاوية، أو على شكل اللوزة، أو متطاولة، ولها حدّان قاطِعَان، يقومان في مكان التقاء الوجهين المشذّبين للأداة. [1]



جمجمة إنسان الهوموراكتوس

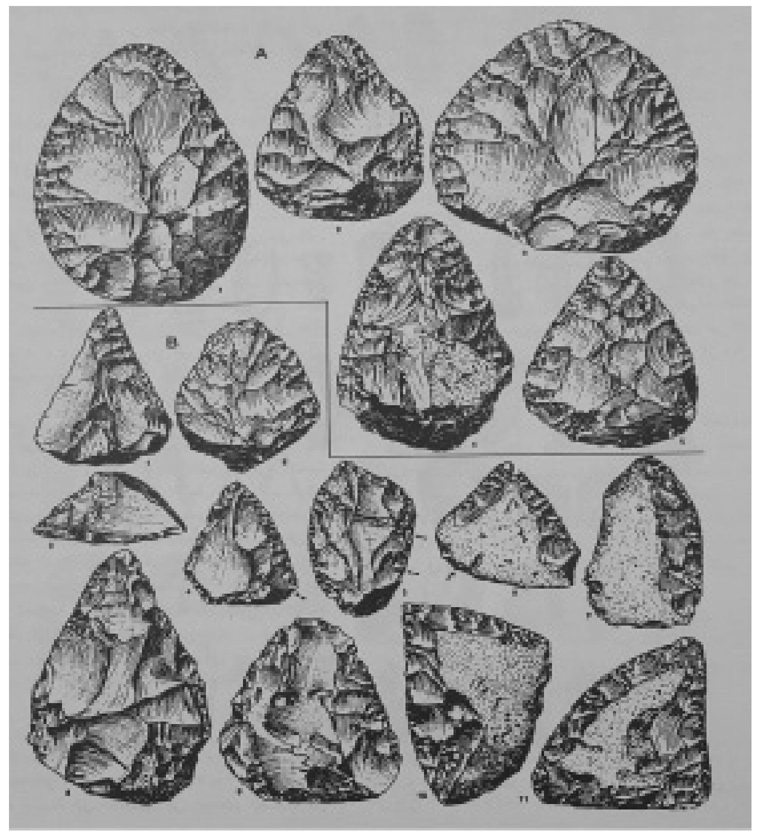
فقد دلّت المخلفات الأثرية للإنسان منتصب القامة في فلسطين، أنه عاش فضلاً عن موقع العُبيدية، فقد وُجدت آثاره في جسر بنات يعقوب، وعلى مقربة من بحيرة الحوالة، وفي وادي قطفة في الجنوب، وفي مغارة الطابون في جبل الكرمل، وغيرها على الساحل.[2] فقد عُثر حديثاً على عظام فخذ لإنسان الهوموراكتوس في موقع جسر بنات يعقوب، يتراوح عمرها بين (1.000.000 - 600.000) سنة خلت، بالإضافة إلى بقايا أخشاب متحجرة وأدوات خشبية هي الأهم من نوعها في المنطقة والعالم حتّى الآن. [3]

1- أور، حضارات...، مرجع سبق ذكره، ص 64.

2- شوفاني، الموجز في...، مرجع سبق ذكره، ص 14.

3- مجلة مهد الحضارات (دمشق)، د. خالد أبو غنيمة، الاستيطان البشري في فلسطين والقدس خلال عصور ما قبل التاريخ، عدد خاص بالقدس، الندوة الدولية القدس في التاريخ، وزارة الثقافة ــ المديرية العامة للآثار والمتاحف، سوريا، (2009-2010)، ص 20.

ووُجدت آلات من العصر الأشولي في كهف الطابون بجبل الكرمل وأم قطفة في شمال غرب البحر الميت. وفي كهف الزطية في شمال غرب بحيرة طبرية. عبارة عن فؤوس حجرية يدوية. [1] فقد كشفت دوروثي جارود عن وجود مصنوعات حجرية، ترقى إلى الزمان المطير الأول الذي يعود إلى مليون سنة ونيف، وذلك في مغارة الطابون (التنور) في جبل الكرمل، وأن الأدوات المكتشَفَة في هذا الموقع سابقة لأمثالها في أوربة وأفريقية، وأن عددها يتجاوز الأربعين ألفاً. [2]



أدوات حجرية مصنعة (الصناعة الأشولية) من مغارة الطابون الطبقات F وEg وتعود للمرحلة الثانية من العصر الحجري القديم (معاوية إبراهيم، الموسوعة الفلسطينية)

1- د. تقي الدباغ، الوطن العربي في العصور الحجرية، ط1، بغداد، دار الشئون الثقافية العامة، 1988، ص45.

2- نمنم، المواقع...، مرجع سبق ذكره، ص 12.

كيف وصل الهومواركتوس إلى فلسطين؟

ويدل انتشار المواقع، وتتابعها الزمني، أن الهومواركتوس، سلك في طريقه إلى بلاد الشام خطّين اثنين، يشكّلان ممرّات طبيعية بين أفريقية وآسيا، الأول ساحلي، أي على امتداد ساحل البحر الأبيض المتوسط، والخطّ الثاني داخلي على طول الانهدام السوري الأفريقي أو الأخدود الأفريقي العظيم الممتد من جنوب وشرق أفريقيا مروراً بالبحر الأحمر فوادي الليطاني، وحتّى نهر العاصي في سورية شمالاً. [1]

يقول الباحث الأثري Norman N. Whalenk، في بحثه الموسوم، «هل اتخذ الإنسان الأول طريقة من أفريقيا إلى اليمن عبر باب المندب؟»، إلى: «إن الغرض من إجراء المسح الآثاري في جنوب غرب اليمن، هو محاولة للبحث عن إجابة لهذا السؤال، عن طريق اختيار فرضِيَّة أن التحرُّك الأول من أفريقيا إلى آسيا، حدث عن طريق المدخل الضيق للبحر الأحمر مباشرةً، إلى جنوب غرب آسيا.

بالنسبة لدخول الهومواركتوس إلى آسيا، منذ حوالي 1.5 مليون سنة، مضى هناك طريقان محتملان لتلك الهجرة:

1. هجرة برِّيَّة: عبر النيل من أثيوبيا، وعبر سيناء إلى الساحل.
2. هجرة بَحْريَّة: قصيرة، عبر الممرّ الضيق باب المندب، الذي يفصل آسيا عن أفريقيا.

من الاحتمالين، فإن الطريق الأخير، يبدو جديراً بالتفضيل، لأن يكون تواصلاً وامتداداً للاستيطان الإنساني الأول، على طول المسار الجيولوجي للأخدود

1- د. محيسن، بلاد الشام...، مرجع سبق ذكره، ص 71.

(إلدواي/ توركنا/ أومو/ أواش...)، وحتّى مُنخَفَض عفار، المحاذي للبحر الأحمر، قبالة الساحل اليمني مباشرةً، حيث يتقارب قارتا آسيا وأفريقيا هناك.

فبينما ظلّ الطريق النيلي إلى غرب آسيا هو المناسب، فإن ممرّ باب المندب كان أقصر وأقرب جغرافياً، من منطقة أصل الإنسان القديم، وتطوُّره في شرق أفريقيا.

لو كانت جماعات الهومواركتوس المبكِّرة قد اخترقت أولاً، عن طريق باب المندب، فلابد من وجود بعض المخلَّفات الدالّة على وجودهم. وأكثر المناطق التي يمكن استكشافها، يجب أن تكشِف لنا عن آثار لفترة البلايستوسين الأوسط. وقد وضح في النهاية أن هناك منطقتين في اليمن، كُشِفَ بها عن آثار للبلايستوسين الأوسط، أولهما من جنوب غرب اليمن، مقابلة لباب المندب، والآخر من الحدّ الجنوبي لوادي الجوف، في شرق وسط اليمن، وشمال غرب مأرِب».[1]

صفاته الفيزيولوجية والحضارية

لقد كان إنسان الهومواركتس متطور في صفاته الفيزيولوجية والحضارية عن سلفه السابق الهوموهابيل، فقد كان أطول قامة وأقوى بنية من سلفه، وحجم دماغه أكبر، وجمجمته أكثر تدوّراً، وجبهته أقل ميلاً للخلف، وعظام حواجبه بارزة، ولكن ذقنه لا تزال غير واضحة. وفي ذلك يقول كارل ساغان، كان أول أنواع الإنسان ممّن عادل حجم جمجمة الإنسان الحديث، هو هومواركتس. [2]

1- مجلة الإكليل (صنعاء)، «Norman N. Whalenk»، هل اتخذ الإنسان الأول طريقة من أفريقيا إلى اليمن عبر باب المندب؟، ترجمة: د. عبد الحكيم شايف محمد وأزهري مصطفي الصادق، العددان (29-30)، وزارة الثقافة، مارس 2006، ص (91-99).

2- كارل ساغان، تنينات عدن: تأمّلات عن تطوّر ذكاء الإنسان، ترجمة: سمير حنا صادق، ط1، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة، 2005، ص 63.

كان نموّ الثقافة البشرية وتطوّر الخواص الفسيولوجية للإنسان متصاحبين منذ البداية، فكما زادت قدرتنا الوراثية على العدو والاتصال والقدرة اليدوية، زادت أيضاً مقدرتنا على صنع الأدوات وعلى استراتيجيات الصيد، وعلى قدرتنا على الحياة. يقول عالم الأنثربولوجيا الأمريكي شيروود وشبورن Sherwood Washburn، «إن أغلب ما نصفه بأنه من خواصّ الإنسان ظهر مع ظهور الأدوات، ومن الأرجح اعتبار أن «تكويننا» ناتج عن «ثقافتنا»، وليس إن «ثقافتنا» ناتجة عن «تكويننا»». [1]

حياته الاجتماعية

وبذلك طوّر هذا الإنسان قدرته على الصيد، واصطاد مختلف الحيوانات بعضها كبير كالفيل والماموث. في البداية نظم اصطياد هذه الحيوانات بشكل فردي أو جماعي وهاجمها بالأسلحة والأدوات وبالأحجار العادية أيضاً. ومع الزمن، أصبح ذلك الإنسان صياداً ماهراً، صنع أسلحة قوية ومؤثّرة، أهمّها الفؤوس اليدوية، استطاع بوساطتها قتل حيوانات خطيرة وقوية كدبّ المغاور وحمار الوحش والحصان البرّيّ والفيل. بعض هذه الحيوانات كان يعيش على شكل قطعان، يصعب النيل منها إلا من قِبَل جماعة بشرية منتظمة ومسلحة بشكل جيد، تستطيع استخدام أساليب قنص متنوعة كالمطاردة والمهاجمة ونصب الفخاخ أو المحاصرة في المغاور والمستنقعات والاستعانة بأسلحة قاتلة كالحراب والنار والأحجار. ومع تطوّر فن الصيد أصبح اللحم يشكّل الوجبة الأساسية لهذا الإنسان الذي أدرك مبكراً القيمة الغذائية العالية للحوم، فأكلها

1- ساغان، تنينات عدن...، مرجع سبق ذكره، ص 66.

بعد أن عرف تحضيرها بشكل جيد عن طريق الشي أو الطبخ. لقد عاش الهوموواركتوس على شكل جماعات قليلة العدد 15 – 20 شخصاً، سكنت إما في العراء بجوار مصادر العيش في وديان الأنهار وعلى الشواطئ أو في المغاور والملاجئ الطبيعية. وقد أدرك الهومووواركتوس أهمية هذه الكهوف، فسكن في مداخلها المميزة دون أن يجرؤ على الدخول إلى أعماقها المظلمة، ثمّ قال بتكييفها حسب حاجته، كتقسيمها بجدران من الأغصان والجلود وإنشاء المواقد والمصاطب فيها. أما الخطوة الحضارية الأهم، فقد أتت عندما استطاع هذا الإنسان التحرّر من الاعتماد الكلي على الملاجئ الطبيعية، وأقام بنفسه بيوته الخاصة التي مكّنته من العيش في الكثير من المناطق الجغرافية المكشوفة. لقد كانت البيوت الأولى عبارة عن أكواخ صغيرة وبسيطة من الأحجار والأغصان والجلود، بُنيت في المناطق الغنية التي توفرت فيها إمكانيات الحياة.

استخدم الهومواركتوس إلى جانب الأدوات الحجرية، الأدوات العظمية والخشبية، التي اندثرت بسبب ضعف مقاومتها، ولم يصلنا منها إلا اليسير، من يبرود بخاصة، وربّما أداة واحدة من اللطامنة، إضافة إلى أداة عظمية أخرى وُجدت في بعض مغائر جبال الكرمل في فلسطين. [1]

أكلة لحوم

وفي الواقع، إن البشريات (أجناس الإنسان Les Hominiens) قد نجحوا في تجاوز أسلافهم، بأن أصبحوا أَكَلَة لحوم، فخلال زهاء مليونين من السنوات، عاش أسلاف أناس العصور الحجرية على الصيد، وأن الثمار والجذور

1- د. محيسن، بلاد الشام...، مرجع سبق ذكره، ص (94-95).

والرخويات... إلخ، والتي كانت تجنيها النساء والأولاد، كانت غير كافية لضمان بقاء النوع. إن الصيد حدّد تقسيم العمل تبعاً للجنس، مدعماً بهذه الطريقة (التحوّل البشري)، لأنه لدى الحيوانات الضارية، وفي كل عالم الحيوان، لا يوجد مثل هذا التفريق. [1]

خلصت دراسة جديدة في الوقت الحالي إلى أن الإنسان القديم لم يكن يصطاد الأفيال فحسب، بل أيضاً كانت رؤوسها تمدّ جسمه بالسعرات الحرارية اللازمة للبقاء، إلى درجة أن الإنسان القديم كان يتحمّل عناء نقل الرؤوس أينما ذهب. فقد عثر علماء الآثار بالقرب من (جسر بنات يعقوب)، في موقع مفتوح يعود إلى الحدّ الفاصل بين عصري البليستوسين المبكر والأوسط، عند البحر الميت في غور الأردن، على بقايا سرطانات البحر وأسماك وأيائل سمراء وسلاحف، بالإضافة إلى بقايا 154 فيلاً، بما فيها جمجمة كاملة، وأجزاء قليلة من الأسنان والأنياب والقحف، وجزءان من السطح الداخلي للقحف العصبي الذي يحمي الدماغ. كما استُخرجت من الموقع نفسه جمجمة فيل أخرى، تكاد تكون كاملة، غير أن الناس الذين كانوا يعيشون هناك يوماً ما أزالوا منها جزءاً عن عمد، وقاموا بسحقه.

يقول العلماء: «كانت الأفيال تمثّل وجبة غذائية مثالية»، لاحتوائها على النسب المثالية من اللحوم والدهون التي يحتاجها الإنسان القديم. [2]

1- ميرسيا إلياد، تاريخ المعتقدات والأفكار الدينية، الجزء الأول، ترجمة. عبد الهادي عباس، دمشق، دار دمشق، 1987، ص 17.

2- مات ووكر، البشر الذين كانوا يأكلون رؤوس الأفيال،28 يونيو/ حزيران 2016.

http://www.bbc.com/arabic/scienceandtech/2016/06/160627_ver_earth_the_people_who_ate_elephant_heads

تأهيل النار

إن تأهيل النار بمعنى إمكانية إنتاجها والاحتفاظ بها ونقلها يمكن من القول بأنه ميّز الفصل بين إنسان العصور الحجرية عن أسلافه. وأقدم الوثائق التي تدل على استعمال النار هي وثائق، تشو ــ كو ــ تيين، التي تعود لحوالي ستمائة ألف سنة قبل المسيح، غير أنه من المرجّح أن (التأهيل) للنار كان قد وُجد قبل ذلك، وفي أماكن مختلفة. [1]

إذن يزوّدنا إنسان بكين أيضاً بأول مثال لاستخدام النار. فهناك قرون، وكسر عظام محروقة، ومواقد فحم، ومراقد من الطين المحروق. ومهما تكن أهمية النار للنوع (للطبخ، وحفظ الأطعمة، والتدفئة، والإضاءة، والحماية من الحيوانات) فإن استعمالها يشير إلى خطوة ثانية كبرى (الأولى هي صنع الأدوات) نحو استغلال الطبيعة. [2]

وهناك ادّعاء بأن هناك موقعاً في جسر بنات يعقوب في فلسطين، قام فيه الإنسان المنتصب بإشعال النيران، بين 790.000 و690.000 عام من الآن. [3]

يقول فيليب حتّي، إن أقدم قطع الفحم المكتشَفَة حتّى الآن في هذه البلاد قد أتت من إحدى الطبقات الدنيا في كهف من كهوف الكرمل، وترجع إلى نهاية الدور الأول للعصر الباليوليتي، أي إلى نحو 150.000 سنة. وهناك قطع أخرى ترجع إلى

1- إلياد، تاريخ..، مرجع سبق ذكره، ص 16.

2- أشلي مونتاغيو، البدائية، ترجمة. د. محمد عصفور، الكويت، سلسلة «عالم المعرفة»، 1982، ص 110.

3- **Paul Rincon, Early human fire skills revealed,29/04/2004**
http://news.bbc.co.uk/2/hi/science/nature/3670017.stm

الدور الأخير من العصر الحجري القديم (الدور الأورغناسي)، وقد اكتُشفت في كهف مجاور (مغارة الوادي قرب الطرف الغربي للكرمل)، وتشير في تركيبها إلى نماذج السندبان والطرفاء والزيتون والكرمة. [1]

لغته

فمن ناحية اللغة، حيث إن مجتمعات الإنسان المنتصب، كانوا صيادين، ونحن نعرف أيضاً أن صيد الحيوانات الكبيرة يتطلّب لغة للتعاون في الصيد، ولكن الأفكار عن الكلام تأكدت إلى حدّ ما من دراسات تفصيلية للجماجم، قام بها عالم الأنثروبولوجيا الأمريكي، رالف هولوواي Ralph L. Holloway من جامعة كولومبيا، صنع هذا العالم نماذج من المطاط لجوف الجماجم، وحاول أن يستنتج شيئاً عن شكل المخ، وهو يعتقد أن منطقة بروكا Broca في المخ هي أحد مراكز عدة مهمة للكلام. وقد وجدها في جماجم الهوموهابيليس منذ أكثر من خمسة بلايين من السنين. صاحب ذلك ظهور اللغة والأدوات والمعرفة في الوقت نفسه. [2]

ليس لدينا أيّ فكرة عن بنية اللغات البدائية، بل يفترض العالم السوفياتي ف. بوناك أنها وُلدت من الإشارات الصائتة لدى القرود شبيهة الإنسان، وتنامت مع تكديس خبرة الإنتاج، وتطورت الحنجرة بفعل الوضع العمودي، وتراجع حجم الفكّ الأسفل. كانت هذه اللغات تتألف من عدد متواضع من الكلمات، أو بكلمة أدق، من

1- د.فيليب حتّى، تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، الجزء الأول، ترجمة: د. جورج حداد وعبد الكريم رافق، بيروت، دار الثقافة، بدون تاريخ، ص 13.

2- ساغان، تنينات عدن...، مرجع سبق ذكره، ص (69-70).

عبارات وحيدة المقطع، منعزلة وعديدة الدلالة. وكان كلام الإنسان البدائي يترافق مع حركات لا تلعب مع ذلك سوى دور ثانوي. [1]

في ذلك يقول د. سلطان محيسن، «هناك ما يدل على أنهم تكلّموا لغة صوتية كافية للتخاطب ولنقل المعارف. وخير دليل على وجود مثل تلك اللغة هي الأدوات والأسلحة التي صنعوها وتعلموا كيف يتناقلون طرق تحضيرها من جيل إلى آخر. إن لغة الهوموراكتوس ليست معروفة لدينا، وهذا أمر طبيعي، ولكننا نستطيع أن نخِّمن وجود تقارب شديد بين لغات (أو لهجات) سكان بلاد الشام في ذلك العصر، لأنهم لم يكونوا منعزلين عن بعض بشكل كامل، وإنما قامت بينهم صلات وعلاقات حضارية متنوعة». [2]

1- ف. دياكوف وس.كوفاليف، الحضارات القديمة، الجزء الأول، ترجمة: نسيم واكيم اليازجي، ط1، دمشق، منشورات دار علاء الدين، 2000، ص 21.

2- د. محيسن، بلاد الشام...، مرجع سبق ذكره، ص 95.

الفصل الثاني

الإنسان النياندريالي الفلسطيني

في مطلع العصر المطير الرابع والأخير، المُعَاصِر للعصر الجليدي الأخير، فيرم في أوربا، دخلت مجتمعات ما قبل التاريخ مرحلة جديدة، تُؤرَّخ بين حوالي (100.000 - 35.000) سنة خلت، يُطلق عليها اسم العصر الحجري الأوسط، أو الباليوليت الأوسط. في هذه المرحلة، ظهر نوع جديد من البشر، هو «إنسان النياندرتال»، حاملاً معه حضارة جديدة ـ وهي الحضارة الموستيرية، أو اللفلوزاية ـ الموستيرية، كما أَطلق عليها البعض في بلاد الشام.

لقد اختفى الموازيبيك الحضاري، الذي ساد في العصر السابق، وتوارى «الهوموراكتوس»، تاركاً المسرح لخَلَفِهِ «النياندرتال»، ووُجِدَتْ أولى متحجِّراته في جبل طارق بإسبانيا، في سنة 1848، وكانت تلك المتحجِّرات هي عظام جمجمة امرأة، ولم تُنشر المعلومات المفصَّلة عن تلك الجمجمة، إلا بعد أن عُثِرَ في سنة 1856 على جمجمة أخرى، وعلى هيكل عظمي كامل لإنسان، في أحد كهوف وادي نياندر، بالقرب من مدينة دوزلدورف، بشمال ألمانيا، ولذلك سُمِّيَ إنسان نياندرتال.[1]

1- د. الدباغ ود. الجادر، عصور...، مرجع سبق ذكره، ص 46.



جمجمة إنسان النياندرتال

عن هذه التسمية، يقول ريك جور في مقالِهِ «The Dawn Of Humans Neandertals»: هناك خلاف حول الاسم، فكلمة «تال» تعني «وادي»، في اللغة الألمانية المعاصرة، ولكنها كانت تُكتَب بالهاءٍ الساكنة «تهال» (Thal)، في القرن التاسع عشر. ولا يزال بعض العلماء يُفضِّلون الهجاء الأصلي، وهو «نياندرتهال» (Neanderthal).[1]

في سنة 1900، وُصِفَ هيكل عظمي كامل، وُجِدَ في ملجأ صخري، قُرب قرية فرنسية، اسمها la Chapelle-aux-Sain، جاء في ذلك الوصف، أن إنسان نياندرتال قصير القامة، ويزيد طوله قليلاً عن خمسة أقدام، وضخم البنية، وجمجمته طويلة ومنخفضة وغليظة العظام، وحجم دماغه 1600 سم3، ما يزيد عن حجم دماغ الإنسان الحديث، وحجاج عينيه بارزة وضخمة، ومحاجِرها واسعة ومدوّرة، ووجهه طويل ومندفع إلى الأمام، وجبهته مُتقهقِرة، وفكّه الأسفل قوي ومتراجع، ولا أثر لوجود الحنك لديه. وفي سنة 1908، وُجِدَتْ بالقرب من موستير، بمقاطعة الدوردون بفرنسا،

1- مجلة الثقافة العالمية (الكويت)، ريك جور، فجر الإنسان (النياندرتاليون)، ترجمة: د. شهرت العالم، العدد 78، السنة الثالثة عشرة ـ سبتمبر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1996، ص 13.

جمجمة، وهيكل عظمي كامل لإنسان، مصحوبة بآلات من حجر الصُوَّان، من نوع الشظايا، ولهذا السبب، اقترنت الحضارة الموستيرية بهذا النوع من الإنسان، وتوالى - بعد ذلك - اكتشاف متحجِّرات، ومخلّفات إنسان نياندرتال، في جهات عديدة من العالم. ففي سنة 1933، اكتُشِفَتْ جمجمة بشرية، في ستينهايم، بألمانيا، وتميَّزت مُقدِّمَة الجمجمة، بصفات نياندرتالية، وخصوصاً في حجاج العينين الغليظة البارزة، وكان حجم دماغها يتراوح ما بين 1200 - 1300 سم3. ثمّ عُثِرَ، في فيمار باهرنكزدورف، بألمانيا، على جمجمة، ومعها آلات حجرية موستيرية ليفولوازية، وكان سطحها مرتفعاً، ومؤخّرتها مستديرة، ولكن حجاج العينين كبيرة وبارزة، والذقن مُتقهقِر، أما حجم الدماغ؛ فقد بلغ 1430 سم3. وبالإضافة إلى ذلك، وُجِدَتْ عظام مُتحجِّرة لإنسان نياندرتال، في أقطار أوروبية أخرى، مثل بلجيكا، وأسبانيا، واليونان، وإيطاليا، وإنكلترا، والاتحاد السوفيتي.

في أفريقية، عُثِرَ في سنة 1921، على جمجمة، في بروكن هل، بجنوب أفريقية، مع آلات موستيرية ليفولوازية، وعظام لحيوانات مُنقرِضَة، ولأخرى، لا تزال تعيش، في الوقت الحاضر، في نفس المكان. وهذه الجمجمة وُجِدَتْ كاملة، مع أجزاء من جماجم أخرى، وعظام للأطراف، ومن هذه المتحجِّرات، تبيَّن شكل جمجمة بروكن، وهل يختلف كثيراً عن جماجم إنسان نياندرتال أم لا، والفارق الرئيسي هو في موقِع الجمجمة، بالنسبة للهيكل العظمي، إذ إنها أكثر اتزاناً على قاعدتها الوسطى، من جماجم إنسان نياندرتال الأخرى، ويبلغ حجم الدماغ فيها 1300سم^3. أما عظام الأطراف؛ فهي ليست مُنحنِيَة، بل مستقيمة، مثل عظام الإنسان العاقل. وبالرغم من الاختلاف في صفات هذه العظام المتحجِّرة، فإنها لا تزال داخل نطاق الصفات النياندرتالية. كما وُجِدَ في السنوات الأخيرة، في كهف افطيح، القريب جداً من ساحل البحر المتوسط، في ليبيا، فلك مُتحجِّر، يعود لنوع من إنسان نياندرتال، يشبه إنسان

نياندرتال في فلسطين، ووُجِدَتْ مع الفكّ آلات ليفولوازية موستيرية، يعود تاريخها للفترة ما بين 60.000 – 40.000 قبل الميلاد. فيما تم العثور على صناعات حجرية موستيرية، في عده مواقع جزائرية، كان أشهرها موقع قريب من مدينة وهران.[1]

في السواحل الشرقية للبحر المتوسط، عُثِرَ في فلسطين، على هياكل بشرية، من نوع نياندرتال، في جبل الكرمل، ما بين عامي 1924 – 1929، وذلك في كهفين، كهف الطابون، وكهف السخول، وكان ذلك تحت إشراف د. دورثي غارود. ولقد دَرَسَ هذه الهياكل ماك كاون وكيث، في العام 1939، كما تناولها زوينر، من ناحية تقدير عمرها، في العام 1959. ويرى زوينر أن هياكل الطابون ترجع إلى فترة غير جليدية، بينما هياكل السخول إلى أوائل الفترة الجليدية الأخيرة (فيرم 1).

لقد اتَّضَحَ أن جماجم الطابون أقلّ غلظة من جماجم نياندرتال أوروبا، ولكنها مثلها، تفتقر إلى الذقن، وذات حوافّ عظيمة بارزة فوق العينين، ولو اقتصر الأمر على هذه الجماجم، لاكتُفِيَ بوضعها في نطاق نوع النياندرتال. إلا أن بعض جماجم السخول أقرب شبهاً إلى الإنسان الحديث، فهي ذات جبهة واضحة، وإنْ كانت عظام الحاجبين فوق العينين لا تزال غليظة، إلا أنها مُقسَّمة في الوسط، كما نرى في الإنسان الحديث، فهي ــ إذنْ ــ لا تختلف كثيراً عن عظام الحاجبين لدى الأوروبيين الحديثين، أو الأستراليين الأصليين. يضاف إلى هذا، أن مؤخِرَة الجمجمة مستديرة، وليست مُدبَّبة، وهي – في هذه الصفة – شبيهة جداً بجمجمة الإنسان الحديث، كما أن للجمجمة عظمة ذقن، لا شكّ فيها، وعظام الوجه دقيقة، وليست غليظة. والذي يلفت النظر، بشكل خاص، من بعض هياكل جبل الكرمل، أنها تُظهِر بعض الصفات التشريحية للإنسان الحديث.[2]

1- د.الدباغ ود.الجادر، عصور...، مرجع سبق ذكره، ص (46-47).
2- د. محمد السيد غلاب ود. يسري الجوهري، الجغرافيا التاريخية عصر ما قبل التاريخ وفجره، ط 1، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، 1986، ص (214-215).



كهف في مفترق الطرق

لقد ذوى كهف عامود فلسطين وجف بفعل مناخ عصرنا. بعد أن كان فيما مضى ملجأ مزدهراً مورقاً للنياندرتاليين - ربما اللاجئين القادمين من الجليد اليوراسي. لقد هاجر الإنسان الحديث أيضاً إلى تلك المنطقة، ويُحتمل أنه كان قادماً من افريقيا. وغير معروف ما إذا كانت المجموعات تفاعلت معاً وكيف. ويقول لورانس اوينز «الصورة في الأسفل»، وهو طالب بريطاني تحمل شجاعة الحرارة في أسود من اجل التنقيب عن المواقد القديمة: «لا تخبرنا مواقع الإنسان النياندرتالي عن أي شيء. إنه لأمر يثير الحنق». ومع ذلك، فإن نار المخيم التي خمدت منذ زمن طويل يمكن أن تلقي الضوء على تلك الحياة الهالكة. كانت مواقد الإنسان النياندرتالي المبكرة بسيطة، وعادة عبارة عن مجرد كومة من الرماد. وقد يفترض ذلك وجوداً أقل تركيباً وأكثر ارتحالاً عما اتسم به وجود الإنسان الحديث.

في ذلك يقول جان شالين، وُجدت جمجمة الجليل في مغارة النوتية. ويبدو أن هذه الجمجمة ترجع إلى ما قبل العهد الجليدي الأخير. وكانت تُنسب حتّى الآن إلى الرجل النياندرتالي، بيد أن فندرميرش قد ذهب في ما نشره سنة 1980 إلى أنّ هذه الجمجمة تتّسم في الواقع بعدد كبير من السمات، تجعلها موصولة بالبشر المنتصبين (Homo erectus). وفعلاً فإنّ الصلابة العامة في هذه الجمجمة وكثافة العظام وقوّة الحويّة العظمية الموجودة فوق المحجرين كلها من الصفات الأثرية الموجودة عند البشر المنتصب. وهي صفات عُدّت خطأً من سمات البشر النياندرتاليين دون سواهم.

هذا فضلاً عن أنّ هذه الجمجمة ذات جبهة ناهضة، وهو ما يُعلن عن قرب ظهور الإنسان الحديث.[1]

وقد اتفق الباحثون على أن الإنسان الذي عاش على مقربة من كهف الطابون في جبل الكرمل بفلسطين كان حلقة بين الإنسان البدائي والإنسان الحالي، خصوصاً وأنه يمكن مقارنة هذا الإنسان أيضاً من الناحية التشريحية بما نسمّيه الآن الإنسان العاقل.[2]



ولعل هذه هي مرحلة التطور الإنساني من النوع العتيق البائد إلى النوع الحديث. وقد أُطلق على هذا النوع اسم إنسان فلسطين. [3]

1- جان شالين، الإنسان: نشوؤه وارتقاؤه، تعريب: د. الصادق قسومة، ط1، دمشق، بترا للنشر والتوزيع، 2005، ص111.

2- د. أحمد فخري، دراسات في تاريخ الشرق القديم، ط2، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، 1963، ص13.

3- د. نجيب ميخائيل إبراهيم، مصر والشرق الأدنى القديم، الجزء الثالث: سورية، ط1، الإسكندرية، دار المعارف، 1959، ص 33.

تُشير نتائج الأبحاث الحديثة جداً، إلى وجود محتمل للإنسان العاقل، في فلسطين، منذ حوالي 100.000 سنة خلت، كما دلَّت على ذلك هياكلهُ، في جبل قفزة نفسهُ، وإذا علمنا بأن هياكل جديدة نياندرتالية، من مغارة الكبارا في فلسطين، أَرَّخَتْ لنحو 60.000 سنة، أدركنا أنه يمكن طرح نظرية جديدة، تقول بأن الإنسان العاقل وُجِدَ، في بلادنا فلسطين، قبل النياندرتال، بزمن طويل، ولم يكن متطوِّراً عنه، وأن هذا النياندرتال ــ ربّما ــ أتى من أوروبا، أو غيرها، ولكنْ، لابد من المعلومات، حتّى نُصبح أقرب إلى الحقيقة.[1]

إذا كان النياندرتاليون في أوروبا هم صَنَعة العهد المستيري وأصحاب الصناعات المشتقة منه، فإنّ التنقيبات التي قام بها فندرميرش في فلسطين قد كشفت عن وجود أناس حديثين متصلين بصناعات مستيرية معاصرة للنياندرياليين الأوروبيين، فالأفراد الاثنا عشر الذين اكتُشفوا في موقع القفزة، لم تُنشر البحوث المتعلقة بهم بعدُ، ولكنّ بعض الأفراد (مثل الإنسان الذي يحمل رَقْم قفزة 6) قد دُرسوا، فالجمجمة عند هؤلاء الأفراد ذاتُ تكثّف عظمي متواصل فوق المحجرين، ولكنها أقلّ بروزاً ممّا عليه الأمر عند الإنسان النياندرتالي، كما أنها أضعف عندهم ممّا عليه الأمر عند رجل الجليل، ثمّ إنّ الجبهة عندهم ليست متراجعة إلى الخلف. أما ارتفاع قبّة الجمجمة وتقوُّسها؛ فشبيهان بما عليه الأمر عند الرجل الحديث. كذلك فإن الجهة القذالية من الجمجمة خالية من الكعكعة ومن التكثّف القذالي، وهي مستديرة كما هو الشأن عند الرجل الحديث. وفي جمجمة القفزة كان الوجه أقلّ كثافة، وهو أصغر من وجه الرجل النياندرتالي، كما أنّ عظم الخد يمتاز فيها بتزوّ واضح شبية بـ «فجوة النّاب». أما المحجران؛ فهما مستطيلان مثلما هو الشأن عند الرجل المفكّر، كما عُرف في عينّة كرومانيون Cro- Magnon، ويوجد ذقن في الفك السفلي مع أسنان كبيرة الحجم. هذا

1- د. محيسن، بلاد الشام...، مرجع سبق ذكره، ص 104.

فضلاً عن أنّ طول الهيكل العظمي يبلغ على الأقل 1.80 متر، وهو مقاس يتجاوز كثيراً أطول الهياكل النياندرتالية المعروفة. وقد ذهب فندرميرش إلى أن هؤلاء الأفراد بشر أثريون مفكّرون Homo Sapiens يتحدّرون من الرجل المنتصب.[1]

يؤكد الباحثان فاندرميرس Bernard Vandermeersch وبار يوسف Ofer Bar - Yosef، في دراستهما الموسومة «الإنسان الحديث في بلاد المشرق»، استوطنت جماعة الإنسان العاقل الحديث جبل الكرمل قبل النياندرتاليين، واتبعت نمط عيش متماثلاً لنحو 60.000 سنة، لذلك لا يمكن الاعتماد على ما يقدّمه علم البيولوجيا لتفسير التغيّر الحضاري الذي حدث في ذلك الزمن. ويستطردان بالقول: إن هذا الترابط بين البيولوجيا والحضارة يصعب تطبيقه في بلاد المشرق. فقد وجد علماء المستحاثات الذين ينقّبون في مواقع هذه المنطقة مجموعات من المستحاثات تشتمل على عينات، يبدو أنها أقدم من مثيلاتها التي في أوروبا.[2]

وهنا تجدر الإشارة إلى اكتشاف جمجمة ناقصة، عُثر عليها في كهف بشمال فلسطين المحتلة. وتسلّط الجمجمة الضوء على منعطف جوهري في فجر التاريخ البشري عندما كان أسلافنا يرتحلون من القارة الإفريقية ليعمروا مناطق أخرى من العالم؛ حيث التقوا أقرب أولاد عمومتهم من إنسان النياندرتال.

وقال العلماء إن الجزء العلوي المقوَّس من الجمجمة دون الوجه والفكين عُثر عليه في كهف (مانوت) بالجليل الغربي في فلسطين المحتلة، وحدّدت الأساليب العلمية عمر الجمجمة بأنها ترجع إلى نحو 55 ألف عام.

1- شالين، الإنسان...، مرجع سبق ذكره، ص (113-114).

2- مجلة العلوم (الكويت)، ڤاندرميرش وبار- يوسف، الإنسان الحديث في بلاد المشرق، المجلد 11، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، يناير 1995.

http://www.oloommagazine.com/Articles/ArticleDetails.aspx?ID=4

وقال الباحثون إن سمات هذه الجمجمة ـ التي تعود إلى حقبة يعتقد أن عدداً من أجدادنا كانوا يبتعدون خلالها عن القارة الأفريقية ـ توحي بأن صاحب الجمجمة ينتمي عن قرب لأول عشائر جنس (هومو سابينس) أو الإنسان العاقل التي استعمرت أوروبا في وقت لاحق. وأضاف الباحثون أن هذه الجمجمة تطرح أول دليل على أن الإنسان العاقل عاش بتلك المنطقة في نفس وقت وجود إنسان النياندرتال، وهو أقرب أقاربنا البائدين من بني البشر. يذكر يسرائيل هيرشكوفيتز، عالم السلالات البشرية بجامعة تل أبيب، الذي أشرف على هذه الدراسة التي أوردتها دورية (نيتشر)، إن إنسان العصر الحديث ظهر لأول مرة منذ نحو 200 ألف عام في أفريقيا، ثمّ هاجر لاحقاً إلى مناطق أخرى. ويقع الكهف الذي اكتُشفت فيه الجمجمة على طريق برّيّ وحيد، سلكه الإنسان الأول من أفريقيا إلى الشرق الأوسط وآسيا وأوروبا.

وقال لاتيمر، إنه يشكّ في أن الجمجمة تخصّ امرأة، على الرغم من أن الباحثين لم يحسموا هذا الأمر.

واكتشف الكهف ـ الذي ظل مغلقاً 30 ألف عام ـ عام 2008 خلال أعمال مَدّ شبكة للصرف الصّحّيّ. وعُثر في الكهف أيضاً على أدوات للصيد وأصداف بحرية مثقوبة ربّما كانت تُستخدم للزينة، وعظام حيوانية، إلى جانب رفات بشرية. [1]

1- ويل دنهام، اكتشاف جمجمة للإنسان الأول قد تسلّط الضوء على فجر التاريخ البشري، 28/ 06/ 2015.
http://ara.reuters.com/article/internetNews/idARAKBN0L12O920150128

حياته الاجتماعية

كان النياندرتاليون أكثر ارتباطاً بأرضهم، فأقاموا في مراكز استيطان رئيسة، نسمّيها معسكرات قاعدة، تبعتها عدة مراكز ثانوية أو معسكرات مؤقتة. إن معظم المواقع النياندرتالية في بلاد الشام [ومن ضمنها فلسطين] هي مغاور وملاجئ، سكنت آلاف السنين، فتراكمت فيها آثار متنوعة، لها دلالات حضارية كبيرة، نذكر من بينها المواقد مثلاً.

فقد ثبت أن النياندرتال أتقن استخدام النار، وإيقادها عند الحاجة، فأصبح الموقد جزءاً أساسياً وهاماً من مسكنه. كما دلّت على ذلك اكتشافات معبّرة، أتت من مناطق عديدة في العالم، ولوحظ وجود نوعين من المواقد النياندرتالية: النوع الأول مواقد جماعية كبيرة، في مراكز الإقامة الأساسية؛ أي في المعسكرات القاعدة، التفّ حولها الناس كلّما دعت الحاجة، ودارت بقربها الجلسات والسهرات والمناسبات التي تبادل فيها السكان خبراتهم ومعارفهم، ممّا كان له أكبر الأثر على التطوّر الاجتماعي والروحي، والنوع الثاني مواقد صغيرة، خارج معسكرات القاعدة، وفي المعسكرات المؤقّتة أو في محطّات توقُّف جماعات الصيادين وملتقطي الثمار، الذين أشعلوا النار لحاجة دفء أو طبخ قبل عودتهم محمَّلين بغنائم الصيد والالتقاط إلى قواعدهم الأصلية. ويجدر بنا هنا أن نُذكِّر بالإشكالات التي تواجه الباحثين في تحديد طبيعة مواد الفحم والرماد التي كثيراً ما تتواجد في المواقع الأثرية، من هذا العصر أو غيره، ولكنها لا تكون مقرونة بحُفر أو مواقد مَبنية بشكل واضح. ممّا قد يدلّ على أنها بقايا نيران طبيعية، ليست مُوقَدَة من قِبَل الإنسان. [1]

1- د. محيسن، بلاد الشام...، مرجع سبق ذكره، ص 101.

حياته الاقتصادية

كانت تقوم صناعة الإنسان في العصر الحجري القديم المتوسط على الشظايا من الصوان، تُستعمل كبلط يدوية ومكاشط وسواطير ومطارق. وكانت تدل صناعات تلك الحضارة على تغيّر في النواحي المناخية، فقد اتجه المناخ إلى الجفاف، وظهرت بقايا حيوانات ترمز إلى هذا اللون من المناخ مثل الغزال والضبع المرقّط والدب والجمل والوعل، وكذلك أيضاً استمرت حيوانات أخرى مائية مثل فرس النهر. ومع وجود جفاف، إلا أن الأنهار الدائمة كانت تجري وتروي الأرض بمياهها. [1]

ووجدوا عظام حيوانات في كهوف الزطة ومغارة الواد، وهي تُنبئ عن عالم حيواني، يختلف بعض الشيء عن حيوانات أيامنا هذه: وجدوا أنياب دب أسمر، وهذا النوع قد انقرض تقريباً من فلسطين، وأسنان الوعل المسمّى Dama Mesopotamica الذي لا يوجد اليوم إلا في بقاع فارس السحيقة. وتدل بقايا هذا الوعل على أنه كانت في فلسطين أحراج، يسقط فيها كثير من المطر. وعثروا أيضاً على قرن غزال وفك سفلي للضبع المرقط، وهو لا يعيش اليوم في بلادنا، وثنية (سنّ) وضرسه. وهما أكبر من أسنان الحيوان الحالي. (والسنّ حيوان برّيّ كبير يشبه الثور)، وقد انقرض من فلسطين، ووجوده في العصر الحجري القديم يدل على أن البلاد كانت أغزر أمطاراً ممّا هي الآن.

1- د. عبد الحميد زايد، الشرق الخالد، القاهرة، دار النهضة العربية، بدون تاريخ نشر، ص 230.

كما وجدوا ضرس فرس النهر وسنّه الكبير، وعظام الخرتيت (وحيد القرن) ونوعاً كبيراً من السلاحف التي تعيش في المياه العذبة. وكل ذلك يدل على أن البلاد كانت دافئة الطقس كثيرة المستنقعات. [1]

عادة دفن الموتى

كذلك يظهر أول دليل على دفن الموتى بين البشر في هذه الفترة. وهنا أيضاً لا نجد تقليداً واحداً ثابتاً. فقد وُجدت جُثث مطوية، وأخرى ممدّدة. وتتفاوت محتويات القبور من الحلي الصدفية والأدوات الصوّانية إلى عظام الحيوانات والمغرة الحمراء. وقد وجدت بعض القبور محدّدة بالحجارة. ووُجدت الجثث في بعضها مثقلة بألواح صخرية (لا فيراسيه1). وعلى أضعف الفروض تدل عادات الدفن هذه على بداية الاهتمام بالموتى، أما على أقوى الفروض؛ فتدل على وعي بمجريات الحياة، وعلى محاولة واعية للتعبير الديني، ويبدو أن الاحتمال الأخير له ما يبرّره إذا تذكّرنا ازدهار فنّ الكهوف الذي ظهر مباشرة بعد انقراض إنسان النياندارتال. [2]

وقد أدّت التنقيبات الأثرية إلى العثور على مقابر نياندرتالية عدة في فلسطين، لعل أهمها:

1. عُثر في مغارة قفزة، جنوب شرق الناصرة مقبرة في ست عشرة جثة نياندرتالية، أتت من خمس عشرة طبقة أثرية، أرّخت لأكثر من

1- مصطفى مراد الدباغ، بلادنا فلسطين، الجزء الأول، كفر قرع، دار الهدي، 1964، ص 356. نقلاً عن: وصف معروضات قاعة العصر الحجري والعصر البرنزي، متحف الآثار الفلسطيني، القدس، 1937.

2- مونتاغيو، البدائية، مرجع سبق ذكره، ص 112.

خمسين ألف سنة، وقد ميّز بين الجثث، ستة أشخاص كبار وسبعة أطفال، بعض الجثث دُفن بعناية واضحة، بينها رجل، وُضع في حفرة صخرية مستلقياً على جانبه الأيمن، ومثنى الأرجل، وهناك قبر لامرأة شابّة مستلقية على جانبها الأسير مَثنية الرجلين أيضاً، وإلى جانبها طفلها نائماً برأسه على صدرها، في وضعية تهزّ المشاعر، وبين ذراعي هذا الطفل جثّة غزال، رمزاً للحياة والخصب، ممّا يدلّ على القيمة الروحية لهذا الحيوان لدى سكان بلاد الشام، والأهم من ذلك أنه يدلّ على تبلور مفاهيم الأسرة المؤلّفة من أب وأمّ وأطفال. في إطار مجتمع، نظّم علاقاته الجنسية والاجتماعية.

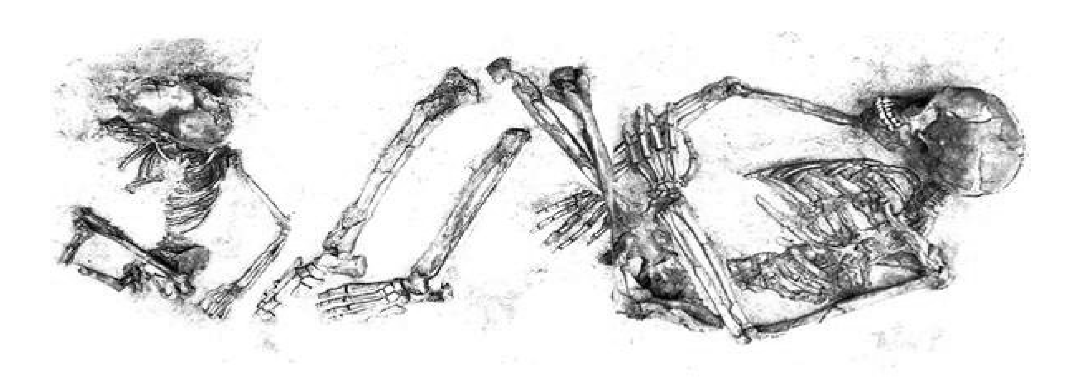
2. وفي مغارة السخول عن قبر جماعي فيه عشرة هياكل بينهم ثلاثة أطفال.[1]

وقد مارس النياندرتاليون في فلسطين عادة الدفن في اتجاه شرق ــ غرب، بحيث يكون الرأس في اتجاه المشرق والعقب في اتجاه المغرب، ومعظم الهياكل المُكتشَفَة كانت مُسجّاة على جانبها الأيمن، ومَطوية بشدة ضمن حُفر صغيرة، وبطريقة تجعل الركبتين مضمومتين إلى الصدر.[2]

يشير الباحثان فاندرميرس Bernard Vandermeersch وبار يوسف Ofer Bar - Yosef، إلى أنه تم اكتشاف، «دفن مزدوج من مغارة قفزة، يدل على شعور ديني قبل ما ينوف على 100.000 سنة. فقد وُجد الهيكل العظمي للطفل عند قَدَمَي الهيكل العظمي لامرأة شابّة، ربّما تكون أمّه. يظهر هذان الهيكلان بمظهر الإنسان الحديث، ولكن حضارتهما تشابه حضارة الإنسان النياندرتالي الشرق أوسطي الأكثر قوة».

1- د. محيسن، بلاد الشام...، مرجع سبق ذكره، ص 102.

2- فراس السواح، دين الإنسان، ط4، دمشق، دار علاء الدين للنشر والتوزيع والترجمة، 2002، ص 126.



ويضيفان: «لقد عُثر في مغارة سخول على مجموعة مدهشة من مواد هيكلية، تنتمي إلى الباليوليتي الأوسط، وتتضمن عدة مدافن ما زالت في حالة جيدة. ونعتقد أن وضعية هيكل المرأة العظمي تدل على دفن مقصود، وهو أقدم عملية دفن عُثر عليها حتّى الآن. وقد وُجد في مغارة عمود بالقرب من بحيرة طبرية، دف مقصود مماثل لدى النياندرتاليين».

ويستطردان بالقول: «وتضم مغارة قفزة، على الأقل ثلاثة مدافن لأفراد من البشر من ذوي المظهر الحديث، وتدل مواقعها في الرواسب على أعمارها. وأحد هذه المدافن كان لرجل بالغ، ركبتاه مَثنيّتان جزئياً، وجسمه ممدّد على الجنب الأيمن في كُوّة طبيعية في جدار كلسي. أما المدفن الثاني؛ فهو قبر مزدوج، وهو الوحيد الذي اكتُشف في الباليوليتي الأوسط، ويضم هيكلاً عظمياً لامرأة، عمرها يتراوح من 18 إلى 20 سنة ممدّدة على جنبها الأيمن، ويداها فوق بطنها، ورجلاها نصف مَثنيتين، وعند قَدَمَيها هيكل عظمي لطفل في سنّ السادسة تقريباً في وضعية عمودية على جسمها. ونظراً لأن الهيكلين كانا ممدّدين بشكل أفقي في حفرة مستطيلة الشكل، وجدرانها مقطوعة في طبقات الموقع، فإن ذلك قد يدل على أن الدفن المزدوج قد تم في قبر واحد.

أما المدفن الثالث؛ فهو لصبيّ، عمره نحو 13 سنة، عُثر عليه في تجويف حُفر في الصخر الليّن، وقد مُدِّد جسمه على ظهره، وجمجمته مستندة إلى جدار المدفن، ويداه متّجهتان إلى الأعلى. وقد وُضع فوق اليدين قرن كبير للأيل الأسمر بشكل

مستعرض على الجزء الأعلى من الصدر. ويدلّ وجود هذا القرن على دفنه أيضاً بشكل مقصود بعد أن تركته الضباع المفترسة».

وقد وُجدت أصداف مثقبة للرخوي كليسيمريس Glycymeris . وأخيراً وجدنا كومة من المغرة ocher الحمراء، محزّزة بخدوش فاتحة. وقد أظهر الفحص المجهري للأدوات الحجرية، وجود مغرة حمراء على الأطراف القاطعة لعدد من هذه الأدوات. وفي أزمنة لاحقة استخدمت المغرة الحمراء صباغاً ومادةً كتيمة بعد خلطها بالزيت.



هيكل لرجل نياندرتالي، لافت للنظر، عثر عليه في كيبارا استؤصل منه الرأس بعد أن تفسخ اللحم ولكن أبقي على الفك السفلي وعلى العظم اللامي (عظم اللسان tongue bone) في مكانيهما. إن شكل العظم يوحي بأن أفراد البشر الأوليين تمكنوا من إصدار أصوات الإنسان الحديث.

والاكتشاف الأغرب، الذي تم سنة 1983، كان العثور على هيكل ذَكَر بالغ، دُفن في قبر، حُفر لهذه الغاية قبل نحو 60.000 سنة، ولكن، لم يُعثر على جمجمة هذا البالغ، ولا على ساقه أو قَدَمه اليمنى. أما القدم اليسرى؛ فقد أتلفها تسرّب المياه عبر الرواسب. ويبدو أن الجمجمة قد نُزعت بشكل مُتعمَّد بعد أن تفسَّخ اللحم، وربّما بعد موت الرجل بعدة شهور، ولا يمكن أن يُعلِّل ذلك أيّ تفسير آخر نظراً لبقاء العظام

الأخرى في وضعيتها دون تغيير، ولا سيما عظم الفكّ السفلي. وهل يمكن أن نتصوّر أيّ سبب غير السبب الديني لتفسير هذه الممارسة الجنائزية؟

ويمكننا استخلاص أشياء مهمّة من الموجودات التي تدلّ عليها، وهي الأدوات الآثارية. إن بعض هذه الأدوات التي عُثر عليها في الموستيري تفي تماماً بهذا الغرض. إن غالبية العظام ومواقع النفايات مثلاً، وُجدت بالقرب من جدار المغارة، في حين كان وسط المغارة مغطّى ببقايا المواقد. إن هذا الترتيب يدلّ على النظافة؛ أي يدل على أسلوب متميّز وحديث من السلوك البشري.

ويتوصل الباحثان فاندرميرس Bernard Vandermeersch وبار يوسف Ofer Bar - Yosef في نهاية بحثهما إلى: «إن الدلائل الواضحة على عمليات الدفن المقصود في مغارات قفزة وسخول وعمود وكيبارا، ووجود الأصداف البحرية مثقوبة في مغارتي سخول وقفزة، وكذلك وجود المغرة الحمراء المستخدَمَة في هاتين المغارتين، وفي مغارة هايونيم، كلها تؤكد وجود سلوك بشري. كما أن العظم اللامي بمظهره الحديث في إنسان نياندرتال الذي عُثر عليه في مغارة كيبارا يوحي بأن اللغة المنطوقة قد تطوّرت». [1]

إذن، تم الكشف عن عينه من حوالي أربعين مدفناً من هذه الفترة في ستة مواقع في فلسطين، وهي مغارة الطابون، مغارة السخول، مغارة الكبارا، جبل قفزة، وادي عامود وكهف شُقبة. ويمكن ملاحظة درجة قليلة من التمايزات الجنائزية في هذه العيّنة. ويمكن القول بأن الدفن البسيط في وضعية الانثناء، أو وضعية شبه الانثناء تمثّل ممارسة الدفن السائدة عند الجماعات الموستيرية الجامعة والصيَّادة. وقد لوحظت معاملة مختلفة لوضعية الجثة في مغارة السخول، حيث وُجد طفل مدفون في وضعية القرفصاء.

1- مجلة العلوم (الكويت)، ڤاندرميرش وبار- يوسف، الإنسان الحديث في بلاد المشرق، المجلد 11، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، يناير 1995.

http://www.oloommagazine.com/Articles/ArticleDetails.aspx?ID=4

وقد وُجدت هذه البقايا جميعها في مناطق السَّكَن، غالباً في الكهوف أو أمامها. وأمكن التوصل إلى الملاحظتين التاليتين عند دراسة التوزيع المكاني لهذه المدافن:

الأولى: لوحظ وجود قدر من التمايز المكاني بين البالغين والأطفال، حيث تتركز مدافن البالغين عند مدخل الكهف، في حين تتركز مدافن الأطفال عند جوانب الكهف.

الثانية: احتمالية وجود نوع من العلاقة ما بين المدافن ومواقد النار.

إن نسبة الأطفال الرّضّع قليلة جداً، ونسبة الذكور أكبر من نسبة الإناث في العيّنة الموستيرية في فلسطين. ومعظم هذه المدافن وُجد في وضعية الانثناء أو الانثناء الشديد. وقد وُجد القليل من المواد التي يُشتبه فيها كعطايا جنائزية ضمن علاقة معينة مع المدافن الموستيرية، بما يشير إلى أن إرفاق العطايا الجنائزية مع الميت لم يكن ممارسة منتظمة. وتتكون هذه المواد من عظام حيوانية وأدوات صُوَّانية. [1]

يرى ميرسيا إلياد، يبدو أن ممارسة الدفن قد تعمّمت، الأجسام المرشوشة بالمغر الأحمر، مدفونة في حفر، حيث وُجد عدد من أدوات الزينة (أصداف أقراط عقود)، ومن الراجح أن الجماجم وعظام الحيوانات المكتشَفَة بجوار القبور هي بقايا وجبة شعائرية، إن لم تكن تقدمات. ويقدم لوروا غورشان Loroi Gowrchan أن «المنقولات الجنائزية أي الأدوات الشخصية للمتوفين، هي مجال جدل كبير». إن المسألة هامة، فوجود أشياء كهذه، لا يعني فقط الإيمان باستمرار الحياة فحسب، وإنما أيضاً القناعة بأن الميت سيتابع نشاطه المميز في العالم الآخر.

وباختصار، يمكن الاستنتاج بأن القبور تؤكد الاعتقاد بحياة أخرى سبقت الإشارة إليها باستعمال المغر الأحمر... وثمة بعض التأكيدات الإضافية: مدافن

1- الكرمل (رام الله)، حمدان طه، البقايا الجنائزية والتمايزات الاجتماعية في فلسطين،، العدد 63، ربيع 2000، ص (196-197).

موجّهة نحو الشرق، مشيرة للنية، بتثبيت مصير الروح على مسار الشمس، حيث الأمل بعودة الولادة، أو تجدّد الوجود في عالم آخر، عقيدة في استمرارية النشاط المميّز، وبعض الشعائر الجنائزية معينة بالتقدمات لأشياء من الزينة وبقايا وجبات الطعام. [1]

أما فيما يخص امتلاكهم للغة؛ فإن بعض الأنثروبولوجيين يعتبرون تنوّع عادات الدفن واتّباعها لأساليب متميزة دليلاً كافياً على أن هؤلاء الناس كانوا يتفاهمون بأكثر من الكلام البدائي والإيماءات (هاول 1960). وإذا صح ذلك، فإن انعزال النياندارتال الكلاسيكي لاشك أدى إلى اختلافات لغوية فصلتهم عن غيرهم من السكان. ويستنتج (هاول 1960) من استعراضه للأدلة الآثارية الخاصة بهذه الفترة، إضافة إلى ما تقدّم، أن الناس قد بلغوا فيها من التطوّر مستوى يشتمل على ركز جماعاتهم حول ذاتها. «هناك عدة أمثلة لجراح سبّبتها الرماح، وعلامات تدل على ضربات قاسية في البقايا العظمية المتبقّية من هذه الفترة، لا في أوروبا وغرب آسيا فحسب، بل في جنوب الصحراء الإفريقية الكبرى أيضاً. وقد استنتج بعض الباحثين من ذلك إمكانية وجود حرب جماعية منظمة ربّما اتصلت بالدفاع عن الحقوق الإقليمية التي قد تعتدي عليها الجماعات المتنقّلة الأخرى». [2]

الفن:

لم يترك لنا إنسان النياندرتال شاهداً واحداً على مَيْله للتعبير بواسطة الفن التشكيلي عن أفكاره وإحساسه بمحيطه، وذلك باستثناء تنفيذه لبعض الحزوز على أدواته العظمية لغاية جمالية بحتة، غير أننا نستطيع البحث عن ملامح ثقافته غير المادية في مدافنه التي تم اكتشاف عدد كبير منها حتّى الآن.

1- إلياد، تاريخ المعتقدات...، مرجع سبق ذكره، ص (23-24).

2- مونتاغيو، البدائية، مرجع سبق ذكره، ص 113.

الفصل الثالث

هل الإنسان العاقل أصله فلسطيني؟!

عندما قال فرانز فيدنرايخ - في مؤتمر علماء الأنثروبولوجيا الطبيعية (علم الأجناس البشرية)، في كوبنهاجن، قبل الحرب العالمية الثانية مباشرةً: «يبدو أن الإنسان العاقل قد جاء من فلسطين إلى شمال أوروبا»، حيث ثارَ ـــ حينها ـــ المندوب النازي، وخرج من غرفة الاجتماع.[1] هذه الحادثة تؤكد أن هناك تياراً من العلماء والباحثين الغربيين يرفض أن يكون أصله من المشرق العربي، لأسباب عنصرية، لا تمتّ إلى جوهر البحث العلمي بصلة، فقد حاول بعض العلماء من الغرب إنكار هذه الحقيقة الدامغة، عن طريق خدعة كبرى، قُدّمت فيها بقايا عظام متحجرة على أنها تعود للإنسان الأول (إنسان پلتداون أو يوانترويس Eoanthropus)، هذه البقايا تتألف من عظام فكّ، وأجزاء من جمجمة، جُمعت في عام 1912، من محجر حصى في پلتداون شرق سسكس في إنجلترا، زاعمين أنها جمجمة حقيقية، ليتوصلوا إلى أن الإنسان العاقل، قد ظهر لأول مرة في إنجلترا، وليس في فلسطين. ظلّت أهمية هذه القطع المتحجرة موضع جدل حتّى سطعت الحقيقة في عام 1953، وهي أن هذه القطع ما هي إلا قطع مزوّرة، تم تركيبها عمداً – فالفكّ السفلي هو لقرد الغاب، وبقايا الجمجمة تعود لجمجمة إنسان حديثة.

1- أولبرايت، آثار فلسطين، مرجع سبق ذكره، ص 58.

إن كل المعطيات المتوفِّرة لدينا، حتّى الآن، تدلّ على أن الإنسان العاقل، كان النوع الإنساني الرابع والأخير، في عصور ما قبل التاريخ، حيث ظهر هذا الإنسان، منذ حوالي 40 ألف سنة؛ أي في العصر الحجري القديم الأعلى (الباليوليت الأعلى). ولكنْ، يذهب الباحث فرنسيس أور، إلى أن ظهوره لا يتوافق تماماً مع الباليوليت الأعلى؛ لأنه وجد قبل ذلك بقليل في موقع قفزة في فلسطين. [1]



جمجمة الإنسان العاقل

اعتَقَدَ العلماء طويلاً، وحتّى الخمسينيات من هذا القرن، بأن الإنسان الحديث (Homo Sapiens)، كان من أصل أوروبي، فبعد أن وُلِدَ ونشأ في كرومانيون (Cro-Magnon)، انتشر في قارتَي آسيا وأفريقيا.

قد بتنا، منذ السبعينيات، نعلم علم اليقين، بأن أسلافنا المباشرين (الأوروبيين)، قد وُجِدُوا في الشرق الأوسط، قبل ذلك بنحو 60 ألف عام. وعلى ذلك، فإن ثقافتهم كانت مشابهة ــ إلى حدّ كبير ــ لثقافة إنسان نياندرتال (Neandertal)، وهو نوع بشري جدّ مختلف عن النوع الأوروبي.[2]

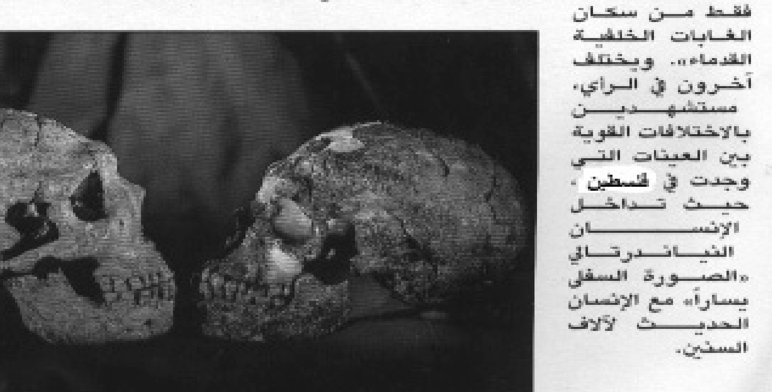
1- أور، حضارات...، مرجع سبق ذكره، ص 125.

2- مجلة الثقافة العالمية (الكويت)، برنار فندرميرش، أصل الإنسان المعاصر: الإنسان الحديث ما تقوله الآثار المتحجّرة، ترجمة: مدني قصري، العدد 78، السنة الثالثة عشرة ــ سبتمبر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1996، ص 50.



أقارب من بعيد أم أنسباء؟

انطلاقاً من تقديره لأهمية مسألة القرابة، قام الباحث الكرواتي جاكوف رادوفشيس بإجراء مقارنة بين ذقنين نياندرتاليين ـ الذقن الأولى قديمة وتميل للخلف «صدر الصورة العلوية»، والثانية أكثر حداثة وناتئة. ويطرح هذا الوصف الدقيق، بالنسبة للبعض، حدوث تهجين بين الإنسان النياندرتالي والإنسان الحديث، ومن ثم فقد انتميا إلى النوع نفسه. «لقد كانوا مثلنا»، بكلمات أحد الخبراء، «وإنما فقط من سكان الغابات الخلفية القدماء». ويختلف آخرون في الرأي، مستشهدين بالاختلافات القوية بين العينات التي وجدت في فلسطين، حيث تداخل الإنسان النياندرتالي «الصورة السفلى يساراً» مع الإنسان الحديث لآلاف السنين.



ففي الشرق الأوسط، كشفت الحفريات الآثارية، ما بين عامي 1930 و1937، في مغارات السخول بجبل الكرمل، وقفزة بالقرب من مدينة الناصرة، في طبقات ذات الصناعات الموسترية؛ أي صناعات العصر الحجري القديم المتوسِّط، عن بقايا بشرية عديدة، تختلف مورفولوجيتها عن مورفولوجية النياندرتاليين الكلاسيكيين، الذين كانوا

يرفقون ــ عموماً ــ هذا النمط من الصناعات. ولقد فُسِّرَتْ - في البداية - أنها صنف محلي لإنسان نياندرتال، فيما ظلّ هذا التفسير قائماً، إلى أن أثبت الأنثربولوجي الأمريكي Francis Clark Howell، بأن تلك البقايا البشرية، تتميَّز بمورفولوجية معاصرة، واقترَحَ أن يُطلَق عليها (Proto-Cro-Magnon) «كرومانيون الأصلي، أو البدائي». وقد أكّدَتْ حفريات جديدة، أُجرِيَتْ في قفزة من العام 1956، إلى العام 1979، على يد فريق فرنسي إسرائيلي (صهيوني)، ذلك التفسير الأنثربولوجي، تأكيداً قاطعاً.[1]

وقد عثرت الآنسة Garrod في كهفين من كهوف جبل الكرمل على هياكل عظمية بشرية من العصر الحجري المتوسط. كذلك كُشف Rene Neuville في كهف يقع جنوبي الناصرة عن هياكل بشرية من هذا العصر أيضاً، وهي تتشابه مع ما عُثر عليه من نماذج موستيرية: وهي تشبه نوعاً يمكن وضعه بين النوع النياتدرتالي والجنس البشري الحالي. وقد قام Theodore D, Mc. Cown and Arthur Keith بفحص هذه الهياكل، وأثبتا أنها تشبه إلى حد كبير الإنسان الحديث.[2]

هذا ما دفع البعض، إلى القول بأن الإنسان العاقل (الحديث)، ومنه جماجمَ الكرمل، وإنسان نياندرتال، كانا متعاصرين، وربّما كان شرقي البحر المتوسط مكاناً ملائماً لظهور الإنسان العاقل (الحديث)، جنباً إلى جنب مع إنسان النياندرتال.[3]

فقد كشفت مجلة Nature» الطبعة العربية»، في عددها الصادر بتاريخ 22 مارس/ آذار 2015، النقاب عن «العثور على جمجمة أثرية يكشف عن أن الجنس البشري كان يعيش في الشرق الأوسط منذ 55 ألف سنة»، فقد ذكر التقرير أنه:

1- مجلة الثقافة العالمية (الكويت)، برنار فندرميرش، أصل الإنسان المعاصر: الإنسان الحديث ما تقوله الآثار المتحجّرة، ترجمة: مدني قصري، العدد 78، السنة الثالثة عشرة ــ سبتمبر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1996، ص (54-55).

2- د. زايد، الشرق الخالد، مرجع سبق ذكره، ص 230.

3- د. محمد السيد غلاب ود. يسري الجوهري، الجغرافيا التاريخية عصر ما قبل التاريخ وفجرهُ، ط 1، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، 1968، ص (214-215).

عُثر في فلسطين على جمجمة غير مكتملة أجزاؤها، يبلغ عمرها 55 ألف سنة، حيث يُحتمَل أنها تنتمي إلى فصيل بشري، اختلط جنسه مع إنسان النياندرتال. وفي كهف عميق، وجد مجموعة من هواة استكشاف الكهوف هذه الجمجمة الجزئية، التي ستسدّ فجوة معلوماتية كبرى في السجل الأحفوري لرحلة الإنسان العاقلHomo sapiens من أفريقيا إلى أوروبا.



يقول الباحث في مجال الأنثروبولوجيا الفيزيائية في جامعة تل أبيب، إسرائيل هيرشكوفيتز، في دراسة بحثية، نشرتها دورية نيتشر (I. Hershkovitz et al. Naturehttp://dx.doi.org/10.1038/nature14134; 2015) : «بين أيدينا هنا بالفعل جمجمة إنسان كان يعيش بجوار إنسان النياندرتال.. ومن المرجّح أن يكون هو الشخص الذي اختلط مع هذا الفصيل».

تشير دراسات جينوم إنسان النياندرتال Homo neanderthalensis، والجنس البشري القديم والمعاصر إلى أن النوعين اختلطا في مكانٍ ما في الشرق الأوسط في الفترة ما بين 50 ألف – 60 ألف سنة (Q. Fu et al. Nature 514, 445-449; 2014)،

لكن المشكلة في هذه الفكرة تكمن في عدم اكتشاف تكوين بشري لبقايا الإنسان الحديث الذي ينتمي إلى تلك الفترة المهمّة في الشرق الأوسط، بعد أن ترك الإنسان العاقل H.sapiens أفريقيا، وقبل أن يستعمر قارتي أوروبا وآسيا.



كهف مانوت.. الواقع بالقرب من بحيرة طبريا في فلسطين، أعيد اكتشافه بعد أن فتحت جرّافة مدخله في عام 2008

في عام 2008، قامت جرّافة ـ كانت تقوم بعملية تجريف أرض تقع بالقرب من بحيرة طبريا في شمال فلسطين ـ بكشف النقاب عن فتحة كهف حجر جيري، ظل مغلقاً لأكثر من 15 ألف سنة. وهؤلاء الهواة هم أول مَنْ اكتشفوا الكهف، والعظمة المحطّمة، التي تمثل الجزء العلوي المقوّس من الجمجمة، متّكئة على حيد صخري. ممّا دفع وزارة الآثار الصهيونية لإجراء مسح شامل لكهف مانوت، فوجدوا أدوات حجرية مدفونة في عدّة مواقع، لم ينقّب فيها أحدٌ بعد.

ممّا لا ريب فيه أن الجمجمة تنتمي إلى جنس H. sapiens حسبما أفاد هيرشكوفيتز، حيث قال: «كانت في شكلها مماثلة لجمجمة الإنسان الأفريقي البدائي

والأوروبي اللّاحقين». وقد حفظ الباحثون هذا الجزء في غشاء أكسيدي ملوّن من كربونات الكالسيوم البلورية، ثمّ استخدموا اليورانيوم المشعّ في المعدن؛ ليكتشفوا أن عمر الجمجمة يبلغ 55 ألف سنة، ممّا يعني ــ على حد قول هيرشكوفيتز ــ أنّ «شعب المانوت ـ على الأرجح ـ هم أسلاف سكّان العصر الحجري الأوائل في أوروبا».

ومن ثمّ، غدا شعب المانوت من المرشّحين الأوائل؛ كي يكونوا هم الفصيل البشري الذي اختلط مع إنسان النياندرتال. ومن ذلك سيكتسب الجنس البشري غير الأفريقي اليوم لمحة من ملامح تراث إنسان النياندرتال. ولا يبعد كهف مانوت كثيراً عن موقعين آخرين، يحملان بقايا إنسان مماثل في العمر من جنس النياندرتال، ويوضح هيرشكوفيتز أن «بلاد الشام الجنوبية هي المكان الوحيد الذي كان يعيش فيه جنباً إلى جنب الإنسان ذي التكوين الجسدي الحديث وإنسان النياندرتال لآلاف السنين». وسوف يكمن الدليل القاطع في البحث عن وجود سلف إنسان النياندرتال في الحمض النووي المأخوذ من الجمجمة، إلا أن درجات الحرارة المعتدلة بالمنطقة تعني أن الحمض النووي للجمجمة في الغالب لم يبقَ على حاله.

ويُقرّ جون جاك هوبلين، الباحث في أنثروبولوجيا الإنسان القديم في معهد ماكس بلانك للأنثروبولوجيا التطوّرية في مدينة لايبتسيش بألمانيا، أنّ فرص استعادة الحمض النووي ممّا تبقّى من الجمجمة ضئيلة، لكنه يأمل في أن مزيداً من التنقيب قد يكشف بقايا إنسان درجة حرارتها باردة بما يكفي لتظلّ محتفظة بالحمض النووي. ومن المحتمل أيضاً لتلك الحفريات أن تربط بين الجمجمة، والأدوات الحجرية، وبقايا أثرية أخرى من الحياة اليومية، التي قد تعزّز صلة جمجمة المانوت بالأوروبيين الأوائل. ويعتقد أن القطع الأثرية المكتشفة حتّى الآن هي أقل عمراً بكثير من الجمجمة. ويفصح هوبلين قائلاً: «بين أيدينا جمجمة، وموقع به بعض الآثار، إلا أن العلاقة بين الجمجمة والآثار معدومة، ممّا يجعله أمراً مزعجاً».

من زاوية أخرى، ترى كاترينا هارفاتي، الباحثة في أنثروبولوجيا الإنسان القديم في جامعة توبينجن بألمانيا، أن «تلك العيّنة مهمّة للغاية ومثيرة للاهتمام، لأنّها ـــ إذا افترضنا صحة التأريخ ـــ تكشف للمرّة الأولى أن الإنسان الحديث وُجد في الشرق القريب في الوقت نفسه الذي وُجد فيه إنسان النياندرتال»، كما تضيف أنه «حتّى الآن لم يكن لدينا أيّ دليل على أنّ الجنسين تعايشا معاً في هذه المنطقة خلال هذه الفترة الزمنية. لذلك.. تُعَدّ هذه الجمجمة جزءاً جوهريّاً من أجزاء حلّ هذا اللغز».[1]

هياكل النياندرتال التي تم اكتشافها في فلسطين بشكل خاص، تظهر مرحلة وسطى من التطوّر نحو هيئة الإنسان العاقل، وحالة انسلاخ كان يقوم بها النياندرتالي هنا، عن الهيئة النموذجية المعروفة في أوربا. إن عظام أطراف الهياكل التي اكتُشفت في مغارة السخول، على سبيل المثال، تُبدي شبهاً كبيراً جداً بعظام أطراف الإنسان العاقل، وكذلك عظم الفك الأسفل والجزء الخلفي من الجمجمة. ويبلغ الشبه درجة، يعتقد علماء الأنثروبولوجيا معها، بأن هذه القطع لو اكتُشفت مستقلة عن بقية هياكلها، لكان من الصعب التعرّف عليها كأجزاء من هياكل نياندرتالية. وهكذا يبدو ظهور الإنسان العاقل في الشرق الأدنى، كنتيجة واضحة لتطور محلي، أما في أوربا؛ فقد ظهر الإنسان العاقل دفعة واحدة، مع أدواته الجديدة التي كانت شائعة في الشرق الأدنى منذ زمن بعيد، الأمر الذي يدل على وصوله مع ثقافته المكتملة من المشرق، عن طريق البلقان، فأوربا الوسطى، حيث عثر على دلائل تشير إلى مثل هذا الارتحال.[2]

في السنوات الأخيرة تجمعت أدلة قوية على أن ظهور أفراد الإنسان الحديث في أوروبا كان في الغالب بسبب هجرة جماعات من البشر إلى هذه

1- مجلة **Nature** «الطبعة العربية» (المملكة العربية السعودية)، إوين كالاواي، فصيل من البشر يجاور إنسان النياندرتال، 22 مارس/ آذار 2015.

http://arabicedition.nature.com/journal/2015/02/517541a

2- السواح، دين الإنسان، مرجع سبق ذكره، ص (137-138).

القارة، قدمت من الشرق الأدنى على الأرجح، بدءاً من زمن يراوح بين ما قبل 40.000 و30.000 سنة.

ويرى معظم الباحثين أن هذه الجماعات المبكرة من أفراد الإنسان الحديث ارتحلت إلى الأناضول وبلاد البلقان أولاً، وصعدت أخيراً عبر سهول ووديان وسط أوروبا إلى شمالي وغربي القارة. [1]

يرى كلّ من بار يوسف وعمحاي مزار، أن السكان الموستيريين الذين وُجدوا في مغاور جبل الكرمل (السخول والطابون) وجبل قفزة يتكوّنون من نينادرتاليين Neanderthals وإنسان عاقل عاقل Homo sapiens sapiens قد جلبت رأيين، يؤكد أحدهما على التطور المحلي للإنسان العاقل العاقل من الإنسان العاقل النيناتدرتالي Homo sapiens Neanderthals ويعتبر الرأي الآخر هذه العينة مزيجاً مزيجاً لمجموعتين منفصلتين من السكان. ويلاحظ الرأيان القِدَمَ النسبي للإنسان العاقل العاقل Homo sapiens sapiens في المشرق الجنوبي Levant بالمقارنة مع أوروبا. مكرّساً فكرة أسبقية حضارات الشرق الأوسط. وحسب هذه النظرة فإن أصول حضارات العصر الحجري القديم الأعلى تمتد بجذورها إلى المشرق الجنوبي. وهي تتوافق جيداً مع الرأي الشائع المعاصر حول الهجرات طويلة الأمد. [2]

لقد أدّت الاكتشافات المتزايدة، ومنذ مطلع القرن العشرين، إلى تبايُن الآراء حول إنسان النياندرتال، ففي حين يعتقد بعضهم، بأنه قد تطوَّر نحو الإنسان العاقل الحالي، يقول آخرون بانقراضه، دون خلف، ويعتبرونه فرعاً جانبياً، على هامش العملية التطوُّرية.

1- مجلة العلوم (الكويت)، ترينكاوس ودورآته ، مَن هم النياندرتاليون؟، المجلد 19، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، أغسطس ـــ سبتمبر 2003.

http://www.oloommagazine.com/Articles/ArticleDetails.aspx?ID=574

2- بار يوسف وعمحاي مزار، علم الآثار في إسرائيل، مرجع سبق ذكره، ص 16.

يعتمد أنصار تطوُّر النياندرتال، على المكتشفات التي أتت من فلسطين، حيث وُجِدَتْ في الكثير من المَغاوِرْ ـ مثل مغارة السخول، والأميرة، والطابون، والزطية في جبل الكرمل، ومغارة جبل قفزة قرب الناصرة، ومغارة العامود بجوار بحيرة طبرية ـ عِدَّة هياكل عظمِية بشرية، لها صفات فيزيولوجية مشتركة مع الإنسان العاقل، مثل حجم الدماغ الكبير، وهي حوالي 1500 سم^3، والقامة الطويلة (170 - 180سم)، بالإضافة إلى الذقن البارزة، وكلها صفات متطوِّرة، حملها الإنسان العاقل. ولقد رافقت تلك الهياكل أدوات حجرية، بينها نصال متطوِّرة، أيضاً، استخدمها الإنسان العاقل بكثافة، فيما بعد.

كل ذلك يشير إلى أن النياندرتال قد تحوَّل في فلسطين ــ بشكل تدريجي ــ نحو الإنسان العاقل، ومن جهة أخرى، فإن أنصار نظرية انقراض النياندرتال، يستندون على معطيات أتت من غرب أوروبا، من بعض المواقع في فرنسا (فونتوبشوفاد)، وألمانيا (شتاين هايم)، وإنجلترا (سوانسكومب)، التي وُجِدَتْ فيها هياكل عظمية، لا تحمل صفات مشتركة بين النياندرتال والإنسان العاقل، ممّا دَفَعَ إلى الاعتقاد بأن النياندرتال لم يكن السلف المباشر للإنسان العاقل، وإلا حمل هذا الأخير صفاته، حسب رأيهم، وأن هذا السلف كان الهوموراكتوس، مستدلّين بانتقال صفات هذا الإنسان إلى الإنسان العاقل، كما ظهر في عِدَّة مناطق من أوروبا، وأفريقية.

هكذا الإنسان العاقل قد تطوَّر من الهوموراكتوس - حسب أنصار نظرية انقراض النياندرتال - دون أن يمرّ بمرحلة النياندرتال من الأساس، حيث يكون كل من النياندرتال والإنسان العاقل فرعين مستقلّين من حيث التطوُّر، حيث ذهب الأول إلى الانقراض، وجاء الثاني كتطوُّر للهوموراكتوس، وليس من الفرع الأول (النياندرتال)، حيث تابَعَ الفرع الثاني (الإنسان العاقل) طريقهُ التطوّري. والواقع أننا لا نزال بعيدين عن البتّ النهائي في هذا الموضوع، لا سيما وأن المُكتشَفَات قليلة،

والتفسيرات النظرية أكثر، ممّا يَحتمِل واقع تلك المكتشفات، لأننا إذا قَبِلَنا بنظرية انقراض النياندرتال، فليس لدينا دليل قاطع على السبب، هل هو تغيُّر مُناخي مُدَمِّر، وكوارث طبيعية، أم وباء شامل، أطاح بهذا الإنسان، أم مذابح جماعية، نفّذها العاقل، أدّت إلى مسح إنسان النياندرتال، المُسالِم في طبيعته عن الوجود، كما يقولُ بعضهم.

فيما يَصعُب قبول هذا الافتراض الأخير، لسبب بسيط، وهو أننا لم نعثُر - حتّى الآن - على آثار مثل تلك المذابح، بل إننا لم نجد أيَّة هياكل عظمية نياندرتالية، قُتِلَ أصحابها بأدوات الإنسان العاقل.

في ضوء ذلك كله، يمكن أن نَفترِض أن كلاً من إنسان النياندرتال والإنسان العاقل، كانا وثِيقِي الصلة ببعضهما، وربّما تعايشا معاً، لزمنٍ قصير، أو طويل، قبل أن يسود النوع الأكثر تكيُّفاً، والأفضل، وهو الإنسان العاقل. ومهما يكن، فلابد لنا، أيضاً، من قبول الحقيقة الراهنة، على الأقل، وهي أن النياندرتال الفلسطيني هو الذي تطوَّر وحدَهُ، فيزيولوجياً وحضارياً، نحو الإنسان العاقل، جَدّنا المباشر، وصانع الحضارة الإنسانية، بمفهومها الشامل، وأما مصير النياندرتال الأوروبي؛ فكان الانقراض. ولكنْ، للأسف هناك مَن يرفض قبول هذه الحقيقة، مثل بعض الباحثين الغربيين، وبخاصة الألمان، حيث يصعُب عليه أن يكون أصلهُ من المشرق العربي، مدفوعاً باعتبارات عنصرية، لا تمتّ إلى جوهر البحث العلمي النزيه، بصلة.[1]

لم يزدهر الإنسان العاقل في منطقة ظهوره، أي الشرق الأدنى، وتحديداً فلسطين، بل هاجر شمالاً، إلى أوروبا، وهناك أبدع حضارة مادية غنية، وروحية رفيعة المستوى. وبحسب المعلومات الأثرية المتوافرة، وهي لا تزال حتّى الآن فرضية إلى حد كبير، تبدلت الأدوار الحضارية في هذا العصر. فبعد أن كانت آسيا وإفريقيا تشكّلان مركز النشاط الإنساني الرئيسي في الباليوليت الأوسط، أصبحت أوروبا هي

1- د. محيسن، بلاد الشام...، مرجع سبق ذكره، ص (38-39).

المركز في الباليوليت الأعلى، حيث حدثت الإنجازات الكبيرة للإنسان الجديد، وفي الميادين كلها تقريباً، بينما ظل الشرق الأدنى هامشياً في هذا المجال. [1]

لقد تم التعرف على مخلّفات الإنسان العاقل الأثرية داخل الكهوف، وفي مناطق مكشوفة، ومن أهم المواقع قفزه، وكهف الأميرة، وعرق الأحمر، والواد، والكبارا، وفصايل، ومواقع أخرى في صحراء النقب مثل بوكر تاختيت. ويتضح من مكتشفات المواقع الأثرية السابق ذكرها أن الأداء الحضاري للإنسان العاقل في فلسطين كان متواضعاً، إذ لا فنون تُذكَر، ولا دلائل شعائر أو معتقدات متميزة، أو بناء، ولا غير ذلك من المكتشفات التي أتت من أوروبا. وبغضّ النظر عن معرفتنا الجيدة للأدوات الصوّانية التي ظهرت في هذه المرحلة، وتطوّرت في ثلاث مراحل، فإننا ما زلنا نجهل جوانب متعددة من حياة الإنسان العاقل الذي عاش فيها، فمثلاً جاءت الأدوات العظمية قليلة العدد، وكانت مدبّبة إما برأس أو برأسين، وظهرت هذه الأدوات في مواقع الواد وفصايل. ومن الأدوات الأخرى التي استعملها الإنسان أدوات الطحن والجرش، حيث تم العثور في كهف قفزه على بلاطه حجرية مع المدقّ التابع لها. أما بالنسبة للمدافن؛ فهي قليلة العدد، وأقدمها ما اكتُشف في وادي عين جيف، وأرّخت بين (13 ألف ــ 16 ألف) سنة، حيث عُثر على هيكل عظمي يعود لامرأة مدفونة على جانبها، قدماها مَثنيتان بشدة، وعلى كتفها الأيمن ثلاثة قرون بقر، كما عُثر على أجزاء من هياكل عظمية بشرية في مواقع كهف الواد، وكهف قفزه، وعرق الأحمر، وكهف الكبارا، ومصطبة الخيام، وكهف الأميرة، وكهف الحمام (هايونيم). [2]

1- شوفاني، الموجز في...، مرجع سبق ذكره، ص 19.

2- مجلة مهد الحضارات (دمشق)، د. خالد أبو غنيمة، الاستيطان البشري في فلسطين والقدس خلال عصور ما قبل التاريخ، عدد خاص بالقدس، الندوة الدولية القدس في التاريخ، وزارة الثقافة ــ المديرية العامة للآثار والمتاحف، سوريا، (2009-2010)، ص 21.

الحضارة الكبّارية

اكتُشفت الكثير من المواقع التي تعود إلى عصر الباليوليت الأعلى، ومنها أتت المعلومات الأولى عن هذا العصر في الشرق الأدنى، ثمّ تتابعت الاكتشافات في سورية ولبنان والأردن. ويقسم العلماء هذا العصر إلى مراحل حضارية: قديمة، تسمّى الأحمرية، نسبة إلى ملجأ في عرق الأحمر، في سفوح جبال القدس الشرقية، وهو الموقع النموذج لهذه الحضارة في فلسطين، والتي توازي الحضارة الأورينياسية في أوروبا، وحديثة، تسمّى الكبّارية، نسبة إلى مغارة كبّارة، في الطرف الغربي لجبال الكرمل. ومنهم مَن يميّز مرحلة انتقالية بينهما، يسمّيها العتليتية نسبة إلى موقع عتليت على الساحل، جنوب حيفا.[1]

فقد تراجع الباليوليت الأوسط محلياً، وأخذت نهاية هذا العصر في المشرق شكلين متباينين: في الجزء الأوسط من المشرق ظهرت صناعات، فيها تأثيرات التقنية اللفلوازية، كما دلّت على ذلك النصال القصيرة والسميكة، وهناك المكاشط والأزاميل، كما ظهرت أداة من نوع خاص. على شكل قصبة أنف الحصان (Chanfrien) اعتمد تصنيعها على إزاحة شظية عرضانية من نهاية القطعة الحجرية بشكل يعطي تلك النهاية شكلاً مقوساً. وهناك أحياناً أداة أخرى عبارة عن حربة لفلوازية، جعل سطحها رقيقاً، من خلال تشذيب ناعم على الوجهين، تُسمّى «حراب الأميرة»، حيث وُجدت في مغارة الأميرة بفلسطين. أما في الجزء الجنوبي من المشرق؛ فلا وجود للأداة القصبة (Chanfrien)، ويبدو أن الأميري، وهو الاسم الذي أُطلق على هذه المرحلة المبكرة قد انتشر في وسط وجنوب المشرق.[2]

1- شوفاني، الموجز في...، مرجع سبق ذكره، ص 21.

2- أور، حضارات...، مرجع سبق ذكره، ص 142.

يقول كون وهنت، إن الحضارة الفلوازية الموستيرية المحلية في فلسطين، وتُعرف باسم الأميرة، تمتاز بصقل قاعدتي الأداة الحجرية، تطوّرت إلى حضارة حجرية قديمة عليا، وهذه هي الحضارة المعروفة جيداً باسم الحضارة الأورِيناسيّة، والتي انتشرت إلى أوروبا. [1]

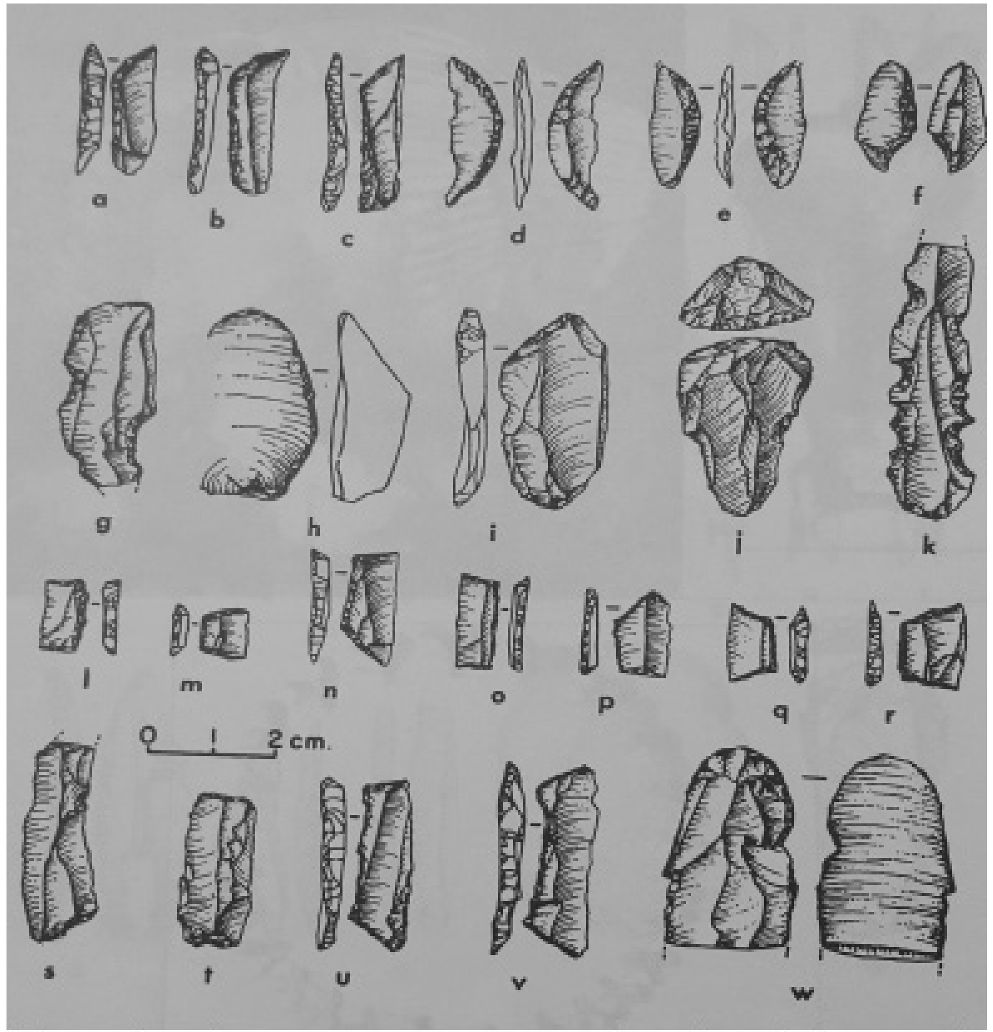
بعد ذلك أتت مرحلة وسطى، ازدهر فيها الباليوليت الأعلى، ولكن، بأشكال مختلفة أيضاً. في المشرق الأوسط ظهرت مكاشط عالية وأزاميل معقوفة ونصال أوريناسية وكمية أكبر من المكاشط والأزاميل العادية. هذه الصناعات أُطلق عليها أحياناً «الأوريناسي المشرقي»، وأحياناً «الأنطلياسي» من مغارة أنطلياس في لبنان. ومن جهة ثانية هناك مجموعات اشتهرت بأنواع مختلفة من الحراب، بعضها لها وجه مسطّح، وحراب مظهَّرة، ونوع ثالث من الحراب المصنّعة عبر تشذيب هامشي، نصف حادّ، أُطلق عليها «الأحمري» من اسم مغارة عرق الأحمر في فلسطين. [2]

أما المرحلة الثالثة والأحدث والمسمّاة أحياناً «العتليتي» نسبة إلى عتليت بفلسطين؛ فقد تميّزت بانتشار الأدوات الميكروليتية التي نُسبت أيضاً إلى الحضارة الكبارية (نسبة إلى مغارة الكبارا بفلسطين)، وهي حضارة لها انتشار واسع، وامتدت من سيناء غرباً وحتّى الفرات شرقاً، ومن فلسطين جنوباً، وحتّى الأناضول شمالاً.[3]

لقد أُطلق على تلك المجموعات اسم الكبارية؛ لأنها وُجدت في السوية س (C) في مغارة الكبارا في فلسطين التي نقّبت بين 1927 - 1931، والصفة الرئيسية لها هي كثرة النصلات التي تصل حتّى 85 ٪ من نسبة الأدوات، ولا يتجاوز طولها 3 سم، المكاشط قصيرة ومتوسطة النوعية، وكذلك الأزاميل. [4]

1- كارلتون كون ووادواردهنت، السلالات البشرية الحالية، ترجمة د. محمد السيد غلاب، القاهرة، مكتبة الأنجلو، 1975، ص 76.
2- أور، حضارات...، مرجع سبق ذكره، ص (142-143).
3- د. محيسن، بلاد الشام...، مرجع سبق ذكره، ص 113.
4- أور، حضارات...، مرجع سبق ذكره، ص 144.

يقول العالم الأثري وليم أولبرايت إن حضارة الكبارية التي كشف عنها تورفي ـــ بيتر استمرت في صناعة الآلات الصوّانية الدقيقة الحجم (ميكروليتية)، واستمرت في تحسينها وتطويرها. [1]



أدوات صوانية تمثل صناعة مرحلة الكبارا (العصر الحجري القديم ـ المرحلة الرابعة) من منطقة النقب في فلسطين (معاوية إبراهيم، الموسوعة الفلسطينية)

1- أولبرايت، آثار فلسطين، مرجع سبق ذكره، ص 61.

كل ذلك بشَّر بتحوّلات أصبحت أكثر وضوحاً فيما بعد، في صناعات، احتوت نسبة هامة من الأدوات الميكروليتية والهندسية التي كانت على شكل مستطيل أو شبة منحرف ــ مستطيل في المشرق الأوسط، بينما أخذت شكل مثلّث في المشرق الجنوبي. ومن خلال هذه المرحلة التي يسمّيها بار يوسف الكباري الهندسي (Kebarien Geometrique)، عبَّرت التبدّلات الحضارية عن نفسها بكل وضوح. [1]

يحدّثنا جيمس ميلارت عن هذه الحضارة بالقول: في نهاية العصر الجليدي، ظهرت مجموعة من البشر تميّزت باقتصاد، يعتمد على جمع الغذاء، وكان من بين الملامح الجديدة ظهور أدوات صوّانية جديدة تسمّى (Microlithes) وهي غالباً ذات أشكال هندسية، ولها مقابض من العظام والخشب، تُستخدم في تشكيل أدوات مركّبة وأسلحة متنوّعة. وهناك مؤشّرات صغيرة ودقيقة تدلّ على أن هؤلاء الناس كانوا يستعملون القوس والنشّاب اللذين اعتُبرا تطوّراً تقنياً هاماً في مجال الصيد. ومن خلال المخلّفات التي تركوها في الكهوف أو في المواقع المكشوفة يستطيع الإنسان أن يستنتج شكلاً أكثر تركيزاً في عملية جمع الغذاء. ومن المفترض أنهم عاشوا في مجموعات أكبر عدداً من أسلافهم، وكذلك كانوا أكثر تنظيماً. ولكن، ليس هناك أيّ أثر للجاروشة أو حجر الطحن اللذين يدلان على بداية وجود الوجبة الغذائية النباتية. ولم يترك هؤلاء الناس أدوات ترف، يمكن أن يكون لها دلالتها على الراحة والتحرر والتخلص من عملية البحث الدائم عن الطعام. [2]

وتبرز الكبّارية تقدّماً ملحوظاً في الحضارة المادية وتقنية إنتاجها. فهي تتميّز بصناعة الشفرات الصوّانية الصغيرة والرقيقة، التي انتشر استعمالها على نطاق واسع، وكذلك بانتقال الإنسان من المغاور إلى منازل الصيد في العراء، وصيد الأسماك على

1- أور، حضارات...، مرجع سبق ذكره، ص 144.

2- جيمس ميلارت، أقدم الحضارات في الشرق الأدنى، ترجمة: محمد طلب، ط 1، دمشق، دار دمشق للطباعة والنشر والتوزيع، 1990، ص (22-23).

ضفاف الأنهار والبحيرات. ويتضح أن الإنسان في هذه المرحلة أضاف الحبوب إلى وجبات طعامه، إذ وُجد هاون من البازلت بالقرب من النقب، على الشاطئ الجنوبي ـــ الشرقي لبحيرة طبرية، وإلى جانبه مدقّة لطحن الحبوب، التي من المؤكد أنها جُمعت من البرِّ، إذ لم تكن الزراعة معروفة للإنسان بعد. [1]

ويستخلص الباحثون من دراسات متعددة ـــ مناخية وجغرافية وجيولوجية ونباتية وحيوانية وإنسانية ـــ أن مناطق صحراوية تكوّنت في الأردن وفلسطين في هذه الفترة، الأمر الذي انعكس في توزّع جديد للسكان. وانحصر التوزّع الجديد في مناطق تتوافر فيها مصادر الماء والغذاء، إذ أقام السكان مستوطنات مؤقّتة لجماعات صغيرة من الصيادين. وإزاء نضوب مصادر معيشته، لجأ إنسان هذا العصر إلى تنويع غذائه، وأضاف إليه بذور الأعشاب البرية الصغيرة، والقمح والشعير وغيرها. فأصبحت الحبوب على أنواعها عنصراً مهماً في غذائه، وبالتالي في أدوات عمله التي أصبحت تضم أدوات الطحن ومناجل الحصاد وصنانير صيد الأسماك وغيرها.

وعلى اعتبار الحضارة الكبّارية تتبع الباليوليت الأعلى والأخير، فهي تبشّر بإنجازات كبيرة لاحقة، أبرزها بناء البيوت الأولى التي سكنها الصيادون والملتقطون في المواسم، إذ إنهم بنوها على شكل حفر دائرية صغيرة، على السفوح والمنحدرات والمصاطب، جُدُرها وأرضها من الطين والحجر، وسُقفها من الجلد والأغصان. وفي النقب، على الشاطئ الجنوبي ـــ الشرقي لبحيرة طبرية، اكتُشف أقدم بناء معروف في بلاد الشام حتّى الآن، يعود بناؤه إلى ما قبل نحو 14.000 سنة ق. م. وعلى الرغم من التطور الحضاري المادي، فإنه لا يمكن اعتبار هذا العصر جديداً تماماً، وخصوصاً أن الاقتصاد البشري فيه ظل قائماً على الصيد والجمع والالتقاط. [2]

1- شوفاني، الموجز في...، مرجع سبق ذكره، ص 22.

2- شوفاني، الموجز في...، مرجع سبق ذكره، ص 23.

الفصل الرابع

الحضارة الناطوفية

أخذ الإنسان يتدرّج في الحضارة منذ زمن بعيد، وأخذ ينتقل خطوة بعد أخرى حتّى وصل إلى تحقيق كثير من الاختراعات التي ساعدتْه على توفير الراحة والأمن لنفسه، ومكّنتْه أيضاً من التغلّب على الكثير من الصعوبات، بل والأخطار التي كانت تحدق به في حياته البدائية الأولى.

ليست قصة أصل الحضارة الإنسانية، ثمّ مولدها وتطوّرها، إلا سلسلة متعاقبة بدأت في بلادنا فلسطين. وليس بين شعوب العالم أجمع مَن هو أولى من شعبنا بالعناية وبذل الجهد في سبيل نشر هذا الفرع من فروع المعرفة. لأن القدر أراد لنا أن نولد ونعيش في هذه البقعة التي نبتت فيها شجرة المدنية الأولى، وشعّ في سمائها ذلك النور المتأجّج، نور المعرفة والعلم، في وقت كان فيه العالم خارج هذه المنطقة ينوء تحت حجب كثيفة من ظلام التوحش، فمن هنا - على ما يبدو - ظهر الإنسان العاقل، منذ ما يربو على الخمسة والثلاثين ألف عام مضت. إن اعتدال الجو وملاءمة مناطقنا لحياة الاستقرار، مكّنت الناس من الوصول إلى بعض أسباب التقدم، وجعلتهم يتقدمون في بعض مراحل الثقافة، وبالأخص عندما خلّف الإنسان وراءه حياته كجامع للغذاء، وأصبح منتجاً له،

وأخـذت تسـتقر جماعـات منه على مقربـة مـن مـوارد الميـاه، يزرعـون الأرض، ويستأنسون بعض الحيوانات.

إن بعض علماء الآثار الأجانب يستخدمون على إثر تشايلد مصطلح «ثورة العصر الحجري الحديث» [1]، للإشارة إلى هذا الحدث.

وقـد نـوّه تشـايلد بأنـه اسـتخدم كلمـة «الثـورة» هنـا للإشـارة إلـى نقطـة أوج التغيّـرات السـابقة الطويلـة في بنايـة المجتمـع الاقتصاديـة وتنظيمـه الاجتماعي. إن مصطلـح «ثـورة العصـر الحجري الحديـث «يعكس بدقـة كل أهميـة الانقلاب الذي حـدث ويربطـه، بالإضافـة إلـى ذلـك، بعصـر آثـاري محـدد، بالعصـر الحجـري الحديـث. إن ثـورة العصـر الحجـري الحديـث «أو بالأحـرى ذروتها، تتسـم قبل كل شـيء بظهـور أهـم ثلاثـة عناصر في حيـاة النـاس: الزراعة وتربية الماشـية (كأسـاس للاقتصـاد). والمسـتوطنات الدائمة، وصناعـة الفخار. إن الانتقال مـن القنص وصيد السـمك وجمـع النباتـات، أي تلقـى منتجـات الطبيعـة الجاهـزة إلـى إنتـاج الطعـام - الزراعـة وتربيـة الماشـية - والتبـدلات المرتبطـة بهـذا، حوّلت بوضـوح، أكثر من أي شـيء آخـر، ظـروف تطـوّر الحيـاة البشـرية، وغيّـرت بيئـة الإنسـان الطبيعيـة وبيولوجيته، وغيّرت كل كوكبنا إلى درجة معينة. [2]

إن كل الباحثين تقريباً متّفقون على المغزى الكبير الذي تنطوي عليه «ثورة العصر الحجري الحديث» بالنسبة إلى تطوّر المجتمع البشري. ولكن، ما إن حاول العلماء الانتقال من المسلمات والأحكام العامة إلى النظر في الوقائع والمواد الملموسة، حتّى ظهر السؤال الآتي:

1- ف. جـوردن تشـايلد، تقـدّم الإنسـانية، ترجمـة: د. محمـد السـيد غـلاب، مصـر، الهيئـة المصريـة العامة للكتاب، 1997.

2- فاليري غولاييف، المدن الأولى، ترجمة: طارق معصراني، الاتحاد السوفيتي، دار التقدم، 1989، ص (28-29).

أين جرى «انقلاب العصر الحجري الحديث» على وجه التحديد، وفي أي وسط طبيعي - جغرافي؟

المزارعون الأوائل

إذا أردنا أن نبحث عن الجهة التي قامت فيها هذه الثورة - الانقلاب - فيجب أن نذكر أن فلسطين كانت هي مسرح الارتقاء الأساسي للثقافة في العصر الحجري القديم، وأن أعظم الحضارات القديمة وأسبقها نشأت هناك. فإليها تنسب أولى التجمعات البشرية المستقرة، منذ العصر الحجري الأول، عصر الرجل الصياد، وعصر المرأة ربة الكهف، ورأس النسب، وسيدة الإنتاج البدائي.

فقبل مرحلة الثورة (الزراعة)، كان الإنسان يتجول ويستعمل الأدوات، أو قل متوحشاً، وكان كل ما يملكه أشياء هينة الحمل، وكان يقضى حياته في اقتناص الغذاء، تتداول عليه الأيام ما بين مدد طويلة، يقضيها طاوياً، وأخرى يمضيها في رغد. كان حراً، وكانت حياته في خطر مستديم. ولكن، من الواضح أنه في تلك الفترة حدث تطوّر بصورة سريعة نحو العصر الحجري الحديث. وقد سمّيت الفترة الانتقالية بين العصر القديم والحديث بالعصر الحجري الوسيط، ودامت نحو ستة آلاف سنة اعتباراً من حوالي عام 12000 قبل الميلاد، وتتمثل هذه الحضارة في بلادنا فلسطين بـ«الحضارة الناطوفية»، الذي سُمّيت لذلك باسم وادي النطوف شمالي غربي القدس. ويعتبر الناطوفيون خلفاء الكباريين [الحضارة الكبارية]، ولكن، بخصوصية متطوّرة جديدة، فقد ازدادت رقعة السَّكَن، وتطوّرت الأدوات المصنَّعة. [1]

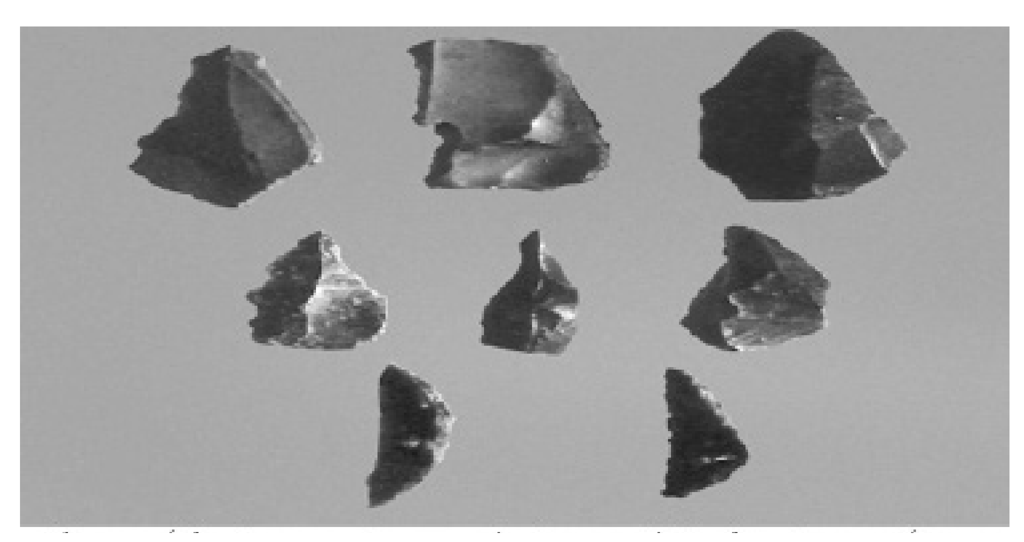
1- د. عمار عبد الرحمن، فنون ومعتقدات المزارعين الأوائل في المشرق العربي القديم «الإلهة الأمّ»، ط1، بدون دار نشر، 2009، ص 30.

لقد حصلت الاكتشافات الأولى لهذه الحضارة من قِبَل مالون A. Mallon وجارود D. Garod في موقع شبقة في وادي النطوف بفلسطين، وهناك مغارتان في جبل الكرمل هما مغارة الواد الكبار (Turville - Petre 1932) و(Garrod et Bate 1937) ومواقع فلسطينية هي عرق الأحمر، أم الزويتنية، عين صخري، اكتُشفت من قِبَل نوفيل (Neuville 1951)، إلى السوية الناطوفية في يبرود في سورية (Rust 1950) والتنقيبات الأخيرة في أريحا (Kenyon 1957) وعين الملاحة (Perrot 1966 - b) والخيام (Echegarary 1966)، وناحال أورن [وادي الفلاح] (Stekeliset,Yizarely1963) وهذه المواقع أكملت المعلومات المتوفرة حول ذلك العصر. [1]

فقد كانت الحضارة الناطوفية الفلسطينية حضارة (ميكروليثية) بالمعنى الصحيح، تتكوّن من نصال صوّانية وآلات مدبّبة، وأخصها ما يسمّى بالنصل القمري (Lunar)، وهو نصل هلالي أو على شكل قوس ربّما استخدام كرأس لسهام من البوص، وبالإضافة إلى ذلك توجد أيضاً كثير من مناقيش ذات أطراف مدبّبة. ومن أهم الآلات الصوّانية الكبيرة الحجم في هذه الحضارة، نصال المناجل والمعاول (Picks)، ممّا يدلّ على الحياة الزراعية في الحضارة الناطوفية، وعلى أنها كانت حينئذاك تلمّ على علم بحصد الحبوب، ممّا استلزم استخدام مناجل بصفة منتظمة. فقد كشفت مس جارود، وكذلك كشف تورفي ـــ بيتر عن مناجل كاملة أو مكسورة من العظم، تزيّن مقابض المناجل الكبيرة. منها رؤوس حيوانات منحوتة، بينما ثُبّتت بنصالها أسنان صغيرة من الصوّان، تمتد من طرف النصل إلى طرفه الآخر. وبعض الآلات التي سمّتها مس جارود معاول (Picks) هي أقرب إلى الفؤوس (Hoes) التي استُخدمت لغرف الأرض قبل بذر الحبوب، ومن هذا يتضح أن أقدم الناطوفيين الذين أمكن

1- كوفان، ديانات...، مرجع سبق ذكره، ص 23.

العثور على آثار لهم كانوا بلا شك في أول مرحلة بدائية لحضارة الفأس (Hoe-culture)، لذلك فإنهم كانوا منتجي طعام، كما كانوا في نفس الوقت جامعي طعام. [1]



أدوات ناطوفية دقيقة (ميكروليثية) تثبت بمقابض عظمية أو خشبية

ويميل تشايلد إلى أن اكتشاف المناجل الحجرية في كهوف فلسطين التي كانت تتخذ مساكن، مصحوبة بآلات خاصة بحرفة جمع الطعام، ممّا يدل على أنها ترجع إلى مجتمع، كان في مرحلة انتقال بين الزراعة وجمع الطعام. ومن هذا يقال إن فلسطين وما جاورها كانت الموطن الأصلي لزراعة الحبوب. [2] إن الناطوفيين قد اكتشفوا الأهمية الغذائية للحبوب البرية التي حصدوها بمناجل من حجر، وقد استخرجوا الحبوب في جرن ومدقة. لقد كان هذا خطوة إلى الأمام نحو الزراعة.[3]

فمنذ حوالي عشرة آلاف سنة تقريباً، ظهرت أولى التجارب الزراعية في واحة أريحا. كان أول مَن وصل هذه الواحة المهجورة، واستوطن المنطقة بجوار النبع

1- أولبرايت، آثار فلسطين، مرجع سبق ذكره، ص (61-62).
2- تشايلد، تقدم الإنسانية، مرجع سبق ذكره، ص 65.
3- إلياد، تاريخ المعتقدات...، مرجع سبق ذكره، ص 51.

شعب، عرف كيف يحصد القمح، وإن لم يكن يعرف كيف يزرعه. ولقد عرفنا ذلك عنهم لأنهم صنعوا أدوات حصاد القمح البري، الشيء الذي يعتبر نموذجاً رائعاً لبُعد نظرهم. لقد صنعوا مناجل من الحجر الصوّان، بقيت ليعثر عليها جون جارستانج وهو ينقّب هناك في الثلاثينيات من هذا القرن. وكانت شفرة المنجل القديم قطعة من قرن الغزال أو من العظم.[1] إذن الأدلة الآثارية والنباتية الحديثة تشير إلى أن زراعة القمح والشعير بدأت في فلسطين. [2] ويبيّن موقع هايونيم الناطوفي في فلسطين أنهم عرفوا نبات الترمس، وكيفيه تقشيره وتحميصه، وهذا يعطي دليلاً واضحاً على أن الناطوفيين عرفوا كيف يحضّرون الحبوب البرّيّة، ويعدّونها للأكل. [3]

ينتقد تشايلد ما ذهب إليه بري لأصل الزراعة المصرية بالقول: إنما هو مجرد نظرية، تقوم على أدلة مباشرة أقل في عددها من الأدلة التي اعتمد عليها في إثبات أن الزراعة نشأت أولاً في فلسطين. [4]

أن سائر الأدوات التي تركها الناطوفيون بكميات كبيرة تُظهر أنهم كانوا من أول مَن مارس شكلاً ما من أشكال الزراعة. وليس لدينا دليل عن ممارسة أي شعب آخر للزراعة في مثل هذا العصر البعيد. ويبدو أن المهاجرين الساميين الأولين إلى مصر إنما أتوا من سورية، وأدخلوا معهم القمح وزراعة الكرمة. والكلمة التي تعني القمح (Gmhw) وكذلك الكلمة التي تعني الكرمة (Ka(r)mu) في اللغة المصرية القديمة هي بلا ريب مشتقّة من السامية، وبالأخص من الكنعانية. [5]

1- جاكوب برونوفسكي، ارتقاء الإنسان، ترجمة: د. أحمد مستجير، مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1987، ص 39.
2- سونياكول، ثورة العصر الحجري الحديث، ترجمة: د. تقي الدباغ ود. نادية سعدي الدبوني، ط3،، بغداد، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي ــ جامعة بغداد، 1965، ص 10.
3- د. عبد الرحمن، فنون...، مرجع سبق ذكره، ص 31.
4- تشايلد، تقدم الإنسانية، مرجع سبق ذكره، ص 69.
5- د. حتّي، تاريخ...، مرجع سبق ذكره، ص 17.

ويذهـب د. يسـري عبـد الـرازق الجوهـري إلـى أن: أول الجماعـات الزراعية وُجـدت فـي مصـر السـفلي بعـد أن قدمت بطريـق السـاحل مـن فلسـطين. والدلالة علـى هـذا الاتصال وجـود مركز للحضـارة الناطوفيـة بحلـوان. [1] أمـا المناجل التي اسـتخدمها جماعـات الفيوم فـي حصد محاصيلهم؛ فكانت مسـتقيمة، تنتهي بأسـنان صوّانيـة، وتشـبه تماماً تلك الموجـودة في الحضـارة الناطوفية فيما عـدا اليد، فكانت مصنوعة من الخشب.[2]

من الفرات إلى النيل

وقد امتدت سمات الحضارة النطوفية من الشمال في المريبط وأبو هريرة على الفرات باتجاه يبرود وسعيدة وجعيتا وعين الملاحة والطيبة في أواسط بلاد الشام باتجاه وادي الفلاح والواد وكيبارة على الساحل الفلسطيني، وجنوباً نحو شقبة وأريحا وأبو سيف والخيام وأم الزيتونة ورأس البيض، ثمّ باتجاه رأس حريس في سيناء؛ لتمتد لاحقاً باتجاه وادي النيل.[3] وتدل المكتشفات أن الحضارة الناطوفية كانت ممتدة شمالاً حتّى سورية والأردن وجنوباً في منطقة حلوان في مصر.[4] وبذلك بدأ التاريخ يسجّل بعض الأدلة على قيام تطوّر متشابه جداً للحضارة الناطوفية في كل من فلسطين ومنطقة الفرات في أعقاب مرور مشترك بمرحلة الكيباريان. كذلك تأكدت الآن

1- د. يسري عبد الرازق الجوهري، شمال أفريقية دراسة في الجغرافية التاريخية، مصر، دار المعارف بمصر، 1978، ص (118-119).
2- المرجع نفسه، ص 119.
3- د. جمال الدين الخضور، عودة التاريخ ـ الأنتربولوجية المعرفية العربية / دراسة في الأناسة المعرفية العربية التاريخية- اللغوية ووحدتها ـ حتّى الألف الثاني قبل الميلاد، الجزء الأول، دمشق، منشورات اتحاد الكتاب العرب، 1997، ص 34.
4- د. الدباغ، الوطن العربي...، مرجع سبق ذكره، ص (88-89).

النظرية التي طرحها كل من أور وكوبلاند وأورانش والقائلة بأن بوتقة حضارية واحدة امتدت خلال هذه الحقبة من النيل إلى الفرات، بصرف النظر عن الخصائص الفردية التي جعلت للحضارة الناطوفية سمات إقليمية متميزة. [1]

مَن هم الناطوفيين؟

ينتمي أصحاب تلك الحضارة إلى عنصر البحر المتوسط، تدل الهياكل العظمية التي عُثر عليها في مواضع مختلفة، أن أصحاب هذه الثقافة كانوا أقرب إلى قصر القامة، ويمتازون بالنحافة، يحملون صفات البحر المتوسط، برأسها الطويل، ووجهها الضيق - المسكون - مثل كثير من العرب الحاليين. [2] فقد اكتُشفت في فلسطين نحو خمسين هيكلاً لنموذج عرق البحر المتوسط في مقبرة قديمة، تبعد عشرين ميلاً عن القدس.[3]

صيد الأسماك

قد يكون الناطوفيين زرعوا محصولاً ما، أو جمعوا أعشاباً، لكنهم إلى جانب ذلك قاموا بصيد الأسماك من البحيرات، والمستنقعات، وبعض المجاري المائية الدائمة، التي أقام الناطوفيين بجوارها. وقد دلت على هذا لصيد، الخطاطيف، والصنانير، وبقايا عظام الأسماك، التي وجدت.[4] ويبدو أنه كان لصيد الأسماك أهمية

1- د.جاك كوفان، الوحدة الحضارية في بلاد الشام بين الألفين التاسع والسابع قبل المبلاد، ترجمة: قاسم طوير، ط1، دمشق، 1984، ص (20-21).
2- كارلتون كون ووادواردهنت، السلالات...، مرجع سبق ذكره، ص 80.
3- عيسى الحلو، عصور ما قبل التاريخ وتاريخ بابل القديم، بيروت، دار الطليعة، 1960، ص 54.
4- كوفان، ديانات...، مرجع سبق ذكره، ص 24.

كبيرة عند الناطوفيين الأوائل في منطقة (عينان) على بحيرة الحولة، وفي وادي فلاح على البحر المتوسط، فالسنارات عُثر عليها بشكل كبير، وعُثر كذلك على الحربون عند الناطوفيين الأوائل. والحضارة الناطوفية هي الحضارة الوحيدة في منطقة الشرق الأدنى التي يُعثر لديها على مثل هذه الأدوات. [1]

البيئة الحيوانية

كما كان صيد الحيوانات نشاطاً هاماً أيضاً، دلّت عليه البقايا العظمية، وقد طال هذا الصيد الحيوانات التي ساعدت الظروف المناخية، التي سادت في فلسطين، على تكاثرها بجوار المواقع السكنية. فالغزال حيوان يعيش في الأماكن المكشوفة (السهوب)؛ حيث المناخ الجاف قليل الأمطار، لذلك فقد ساد هذا الغزال بشكل واضح في كل المناطق. وهناك، بنسب متفاوتة، الأيل الأسمر الرافدي (Daim de Mesopotamie) والأيل، واليحمور، والخنزير البري (هذا الخنزير وُجد بكثرة في عين الملاحة). بينما استمرت، هنا أو هناك، بعض الحيوانات التي تعيش في الغابات المغطاة بالأشجار التي سادت في العصر المناخي الرطب السابق. كما وُجد الثور البري، في كل مكان تقريباً، والخيليات التي أثار تمييزها تبايناً بين الباحثين. [2]

ويقدم لنا اكتشاف جمجمة كاملة تقريباً لكلب كبير في طبقات أحد كهوف الكرمل أول برهان عن تدجين الحيوانات، وهذا حادث له أهميته البالغة في سير الإنسان نحو الحياة المتمدّنة. «حيث عثر بات (Bate) على جمجمة كلب من نوع (Canis Familiaris) في مغارة الواد السوية B، ولكن كلوتن بروك رفضت هذا الرأي

1- ميلارت، أقدم...، مرجع سبق ذكره، ص 32.

2- كوفان، ديانات...، مرجع سبق ذكره، ص 24.

(Clutton Brock 1962)، وهكذا فلا توجد براهين حقيقية على تدجين الكلب قبل عصر النيوليت ما قبل الفخاري في أريحا. [1] إلا أن ميلارت يذهب إلى أن الكلب النطوفي ما هو إلا ذئب فلسطيني. [2] يقول سونيا كول، إن الكلب الذي وُجدت بقايا عظامه ربّما كان ذئباً، ولم يكن حيواناً أليفاً قط. [3] وأقدم دليل يثبت تدجين الماعز وُجد في الطبقات التي سبقت صناعة الفخار في أريحا. [4]

ونستدل من دراسة الناطوفيين القدماء، أن بني الإنسان كانوا قد تدجّنوا قبل أن يبدؤوا بتدجين النبات والحيوان. فالصيادون وجامعو الثمار الذين كانوا يستقرون في رقعة من الأرض، ويرتبطون بقراهم (نتيجة وفرة الغذاء حولها) إنما كانوا مشابهين للمزارعين المستقرين في قراهم، والمرتبطين بالأرض التي يفلحون. ويمثل هذا اتجاهاً فكرياً جديداً هو رغبة أولئك الأقوام في أن يعتمدوا على استمرار وفرة إنتاج تلك الرقعة من الأرض التي يرتبطون بها.

ويمكن القول بأن الناطوفيين غيرهم من الصيادين وجامعي الثمار الذين استقروا في بقعة ما كانوا مكيّفين تكيفاً مسبقاً لإنتاج الغذاء.) والتكيّف المسبق في هذا السياق يعني تطوّر طراز سلوكي في وقت ما؛ بحيث يصبح ذا فائدة واضحة بعد تغيّر الظروف السائدة)، ولا يمكن التعرّف على التكيّف المسبق إلا بعد مضي فترة من الزمن على حدوثه. فالناس الذين أنتجوا مبتكرات، أصبحت فيما بعد ذات أهمية قصوى، لم يخطّطوا لمبتكراتهم؛ لكي تكون بتلك الأهمية، ولكنهم قصدوا منها أن تلبّي حاجاتهم الآنية في ذلك الوقت. فالصيادون وجامعو الثمار طوّروا حجارة الرحى البدائية لطحن الحبوب البرية قبل استعمال الناطوفيين لها بمدة طويلة. ونفس القول ينطبق على

1- المرجع نفسه، ص 27.

2- ميلارت، أقدم...، مرجع سبق ذكره، ص 31.

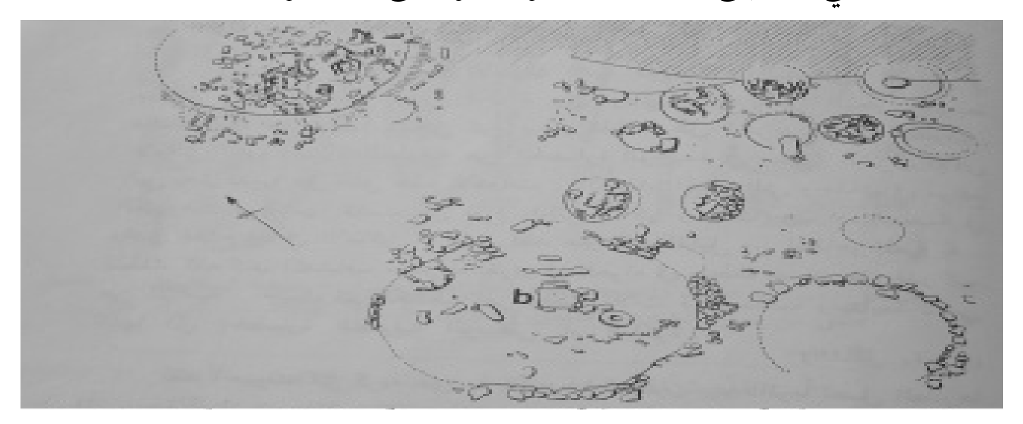
3- سونياكول، ثورة...، مرجع سبق ذكره، ص 19.

4- المرجع نفسه، ص 20.

الأوعية والأهراء البدائية التي استُعملت لخزن الفائض من الغذاء المنتج. فقد كانت تُستعمل أول الأمر لخزن الأغذية البرية التي كانوا يجمعون مثل ثمار الجوز والحلزون، والغريب أن الحلزون كان من مصادر الغذاء الهامة عند الصيادين وجامعي الثمار. ولعل أهم تكيّف مسبق لإنتاج الغذاء كان معرفة الصيادين وجامعي الثمار الوثيقة بأنواع عديدة من النبات والحيوان، واستعدادهم لتطوير أدوات وأساليب مختلفة للإفادة من مصادر الغذاء الجديدة. (1)

المباني

إن بقايا المباني التي وُجدت في مواقع الكهوف أو أمامها كانت من نوع بدائي. كما وُجدت جدران ضخمة في وادي فلاح، أما في الأماكن الأخرى؛ فقد عُثر على القليل من المظاهر المعمارية. لذلك كله كان اكتشاف مركز استقرار في العراء في منطقة عينان على قدر كبير من الأهمية؛ حيث تم الكشف عن وجود ثلاث قرى دائمة ومتتابعة، تنتمي كلها إلى الحضارة الناطوفية الوسطى أو الباكرة.



مخطط لجزء من قرية عينان الناطوفية، مع بيوت دائرية وحفر تخزين وقد أُعيد استعمال بعضها كقبور، a = قبر زعيم العشير، b = الموقد في منزل دائري، لاحظ المدافن في حفر التخزين بعد استعمالها

1- بيتر فارب، بنو الإنسان، ترجمة. زهير الكرمي، الكويت، سلسلة «عالم المعرفة»، 1982، ص 65.

لقـد احتـوت كل قريـة علـى مـا يقـارب الخمسـين بيتـاً دائريـاً، تصـل أقطارهـا إلـى سبعة أمتـار مصطفـة حـول منطقـة مركزيـة مكشـوفة، تحتـوي علـى عـدد كبيـر مـن المخـازن المدهونـة بالجـص، ومـن المحتمـل أنهـا كانت تُستعمل لخـزن الطعـام، وتغطـي القريـة مسـاحة 2000 م2 علـى الأقـل. كانـت البيـوت المصنوعـة مـن الحجـارة تصـل فـي بعـض الأماكـن إلـى ارتفـاع متـر، وكانـت أرضيـات الغـرف فـي بعـض أجزائهـا دون مسـتوى الأرض، كمـا وكان البنـاء التحتـي المصنـوع مـن الحجـر مدهونـاً بالجـصّ أيضـاً. أمـا البنـاء الفوقـي؛ فـكان مصنوعـاً مـن القصـب الـذي يتوفـر منـه مخـزون لا ينضـب في البحيـرة المجـاورة. وكانـت الأعمـدة المركزيـة تشـكّل دعامـات للسـقوف المخروطيـة للمنـازل، أمـا المواقـد المبنيـة مـن الحجـارة؛ فكانـت تُبنـى فـي وسـط الغرفـة، أو فـي أحـد جوانبهـا، كمـا كانـت الجاروشـة والهـاون يوضعـان علـى أرض الغرفـة. وكثيـراً مـا عُثر على مدافن الأطفال تحت بلاطة حجرية في أرض الغرفة. [1]

مـن أهم مواقـع الحضـارة الناطوفيـة الأثرية موقـع عين الملاحة شـمال غرب بحيـرة الحولـة، تعتبـر النمـوذج الحقيقـي للقريـة التـي ضمّت أبنيـة وتجمّعاً سـكانياً دائمـاً. لقـد حفـرت البيوت فـي الأرض، وكان لهـا جـدران دائرية مـن الحجر بقيت محفوظـة أحيانـاً حتّى ارتفـاع متر واحـد. الأرضيات كانـت غالباً مرصوفـة بالحصى ومحفـورة فيهـا المواقـد والأحـواض. إن الأبنيـة، إضافـة إلـى الأثـاث الثقيـل الذي وُجـد فيهـا، ومـا أظهرتْه الدراسـات حول مصـادر الغذاء، قـادت بيـرو (Perrot) إلى اعتبـار عيـن الملاحـة مركـزاً سـكنياً دائمـاً، قـدّر عـدد بيـوت السـوية الواحـدة فيـه بخمسين بيتاً، أقام فيها ما بين 200 – 300 إنساناً. [2]

1- ميلارت، أقدم...، مرجع سبق ذكره، ص (32-33).

2- كوفان، ديانات...، مرجع سبق ذكره، ص 27.

البيئة الدينية

القبور هي إمّا فردية أو جماعية. وتعتبر جارود أن القبور الفردية، في مغارة الواد، هي الأحداث. وتتواجد المدافن الفردية في كل المواقع، بل إنها تشكّل القاعدة العامة في ناحال أورن [وادي الفلاح]، حيث لا يوجد إلا مدفنان مزدوجان، وفي مغارة شقبة أيضاً، لقد دُفنت الجثث بشكل مَثني، أو مقلّص جداً (ناحال أورن)، ودون توجّه خاص، وغالباً ما سُند الرأس بالحجارة (ناحال أورن، عين الملاحة) بينما غطّت أحجار كبيرة المفاصل.



مدافن أسفل المساكن موقع عين الملاحة من العصر الناطوفي

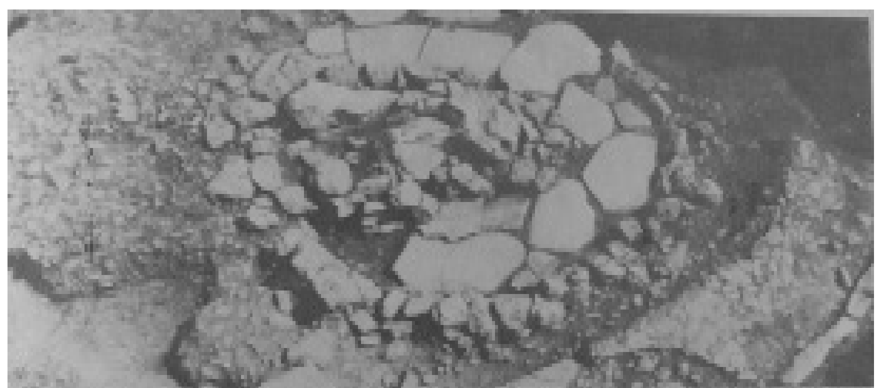
وقد تألفت القبور الجماعية من حُفر دَفْن مغطاة من الأعلى بألواح من الأحجار المسطّحة (الواد، عرق الأحمر، عين ملاحة) وأحياناً، في عين ملاحة، غُطّيت بلوح حجري واحد كبير. وفي عين الملاحة كان جدار إحدى هذه الحُفر مغطّى بطلاء سميك من الطين والرمل، عليه آثار طلاء أحمر، بينما أحاط جدار صغير، من الحجر، بالألواح الحجرية للغطاء. وكان هذا النوع من القبور يضم بين ثلاثة إلى سبعة أشخاص في عرق الأحمر. وقد لاحظت السيدة جارود أنه،

في موقع الـواد، لم تكـن الهيـاكل مرصوفـة بانتظـام، وإنمـا موضوعـة الواحد فوق الآخر، وقد أضرّت بها الأحجار الكبيرة.

وفي عرق الأحمر لم يُعثر إلا على جثة واحدة كاملة، بينما تمثّل بقية الموتى من خلال جماجمهم فقط. وقد كانت هذه الجماجم في أوضاع متباينة جداً، وبقرب كل منها وُضع سنّ حصان. إن الطابع الجماعي لهذا المدفن يظهر من خلال إعادة دَفْن ثنائية لستة أشخاص، إضافة إلى سبعة سبقوهم إلى نفس المدفن. وقد توصّل بيرو إلى نتيجة مشابهة من عين الملاحة؛ حيث عُثر على مدفن جماعي، معظم هياكله أُضيفت فيما بعد، بينما اقتصر الدفن الأولى فيه على شخص أو شخصين، دُفنا معاً. إن حقيقة كون الجماجم تحظى بالاهتمام الأكبر (علماً بأن الاهتمام لم يكن وفقاً عليها) بين بقية الأجزاء المدفونة يدل على المكانة الخاصة للرأس في معتقدات المجتمعات الناطوفية المتعلقة بما بعد الموت. ولكن ذلك لا يبرهن على أي شيء أكثر. رغم التفسيرات الشعائرية، المبالغ فيها، من قِبَل أناتي. ويلاحظ أخيراً الوجود الكثيف لأجزاء من المغرة الحمراء في الحُفر كالحُفرة رَقْم 25 في عين ملاحة، التي وُجدت فيها ثلاثة عراقيب غزلان، ممّا يؤكد الأهمية الرمزية، لهذا الحيوان، التي دلّت عليها التماثيل أيضاً.[1]

وتدلّ سعة مدافنهم التي حفروها في الصخور على استقرارهم النسبي في السكن. ففي صخور الوادي هناك ثمانية وسبعون قبراً. هذا بالإضافة إلى عدد من القبور المستديرة في عين الملاحة. وكانت هذه القبور عامة، بمعنى أنها تضمّ أكثر من جثّة واحدة. وكانو يهتمّون بالدفن وبالأموات، ويتركون معهم الأصداف والحلي والأحجار، ممّا يدل على اعتقادهم بنوع ما بالحياة بعد الموت. ووُجدت في أحد قبور عين الملاحة مجموعة من الأصداف مرتّبة بشكل تاج بداخل حفرة، طُليت بالملاط، ووُضعت فوقها صخور مرتّبة في شكل دائرة.[2]

1- كوفان، ديانات...، مرجع سبق ذكره، ص (34-32).
2- د. الدباغ، الوطن العربي...، مرجع سبق ذكره، ص 90.



قبر لزعيم عشيرة ناطوفية في عينان، الألف التاسع قبل الميلاد، وللقبر متراس ملون باللون الأحمر ومطلي بالجص ومغطى برصيف حجري، ويمكن أن القبر أصلاً منزل زعيم العشيرة الذي دفن فيه فيما بعد

ويعتبر قبر رئيس العشيرة في عينان من أكثر القبور أهمية في الحضارة الناطوفية؛ حيث يكون القبر متوسط الحجم، ويحتمل أن يكون القبر أصلاً منزلاً لرئيس العشيرة. أما عن شكل القبر؛ فهو بناء دائري الشكل، يبلغ طول قطره 5 أمتار، وعمقه 80 سم، ويحيط بالقبر متراس مَطلي بالجص، ومدهون باللون الأحمر. [1]

ويحدّثنا د. رشيد الناضوري، أنه عثر على عدد من الأدلّة الأثرية المعبّرة عن الفكر الديني في تلك الحضارة، مثل بعض المقابر الفردية، والجماعية، التي تؤكد اعتقاد إنسان تلك الحضارة في

قبر زعيم العشيرة الناطوفية في عينان، وقد غطي قسم من الهيكل العظمي، واسند قسم إلى مجموعة حجارة

1- ميلارت، أقدم...، مرجع سبق ذكره، ص 35.

الحياة الأخرى، ومن الأهمية الإشارة إلى أن تلك المقابر لم تكن مجرد حُفر تحت مستوى سطح الأرض، توضع فيها جثث الموتى، بل قد لوحظ بعض الكتل الحجرية فوق بعض الهياكل العظمية، ممّا يمكن تفسيره كمحاولة مبكرة لتخليد المتوفى في منزله الأبدي. وربّما يتجه الرأي إلى تفسير آخر، يعتمد على الرغبة في المحافظة على جثة المتوفى من الحيوانات الضارية، التي من المحتمل أن تنهش جسد المتوفى، ممّا يتنافى مع عقيدة الخلود، ولذلك اتُّجه إلى محاولة تحقيق ذلك الخلود، بوضع تلك الكتل الحجرية فوق مكان الدفن، للحماية من ناحية، وأيضاً لتثبيت ذلك الاعتقاد بالأبدية.

هناك ظاهرة لها أهميتها في الحضارة الناطوفية في فلسطين، هي ذرّ التراب الأحمر في المقابر. ويلمس المؤرّخ تواجد تلك الظاهرة، أيضاً، في بعض المجتمعات الأخرى المنتمية للعصر الحجري الحديث، وبصفة خاصة في إيران والأناضول. وقد اختلف العلماء في محاولة تفسير تلك الظاهرة الغامضة، ولكن، اتجه رأي البعض إلى أنها ربّما تتصل بعقيدة الخلود، أيضاً، من حيث إن اللون الأحمر هو لون الدم، الذي يعبّر تواجده عن استمرار الحياة، وإنّ ذَرّ التراب الأحمر ربّما يرمز أيضاً إلى استمرار الحياة بالنسبة للمتوفى، وبذلك ينعم بالخلود في العالم الآخر.

من أهمية الإشارة، في هذا الصدد، إلى أنه ممّا يؤكد كون تلك المقابر متصلة اتصالاً وثيقاً بعقيدة الخلود، تواجد بعض الأدوات الخاصة مع المتوفى حتّى تكون في متناول خدمته في العالم الآخر. [1]

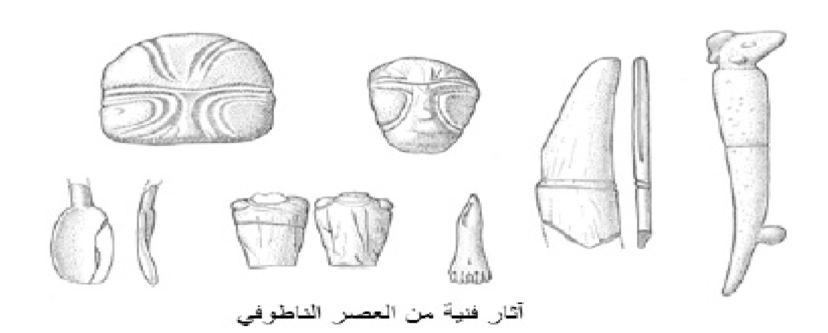
1- د. رشيد الناضوري، المدخل في التحليل الموضوعي المقارن للتاريخ الحضاري والسياسي في جنوب غربي آسيا وشمال أفريقيا، الكتاب الثالث: المدخل في التطور التاريخي للفكر الديني، بيروت، دار مكتبة الجامعة العربية، 1968، ص 36.

يقـول ميرسـيا إليـاد، إن النموذجين من مقبـرة نطوفية ـ أ) دفن الجسـم بكاملة فـي وضـع منحنـي، ب) طمـر الجماجـم، كانـا معروفيـن مـن عهـد (الباليوليتيـك) الحجـري، وامتـدت فـي (النيوليتيـك). وبشـأن الهيـاكل المكتشَـفَة فـي عينـان، فقد افتـرض أن ضحيـة بشـرية قـد ضُحّـي بهـا بمناسـبة الدفن، ولكـن مدلولهـا مجهول. أمـا بالنسـبة إلـى مسـتودعات الجماجـم؛ فقـد جـرت مقارنـة الوثائـق الناطوفيـة مع المسـتودعات المكتشَـفَة فـي (أوفنـت Offent وبافيـر Baviere ومغـارة هوهلنسـتن Hohlennten وفـي يرتنبـورغ): كل هـذه الجماجـم كانت تعود لأفراد ربّمـا ذُبحوا من قِبَـل صيـادي الـرؤوس، أو مـن قِبَـل أَكَلَـة لحوم البشـر. وفـي الحالة الأولـى كما في الحالـة الأخـرى، يمكـن اسـتخلاص تصـرّف سِـحْر ـــ دينـي، باعتبـار أن الـرأس (النخاع)، كان معتبراً المركز للروح. [1]

الفن

إن السـتة عشـر تمثـالاً صغيـراً المعروفـة لدينـا تـدلّ علـى تقنيـة متطـورة للنقـش، تصحبهـا واقعيـة متجـذّرة. ولكـن، فـي حـالات أخـرى هنـاك تبسـيط شـديد، سـببه ليـس دائمـاً طبيعـة مقاومـة المـواد الخـام، ممّـا يجعـل تفسـير مثـل تلـك الحـالات صعبـاً، علمـاً بـأن هذيـن النمطيـن، الواقعـي والمبسّـط، يمكـن أن يتواجـدا معـاً فـي الموقـع الواحـد. والتماثيـل عبـارة عـن تصويـر للحيوانـات والبشـر. الفنـون الحيوانيـة تضـمّ حوالـي عشـر قطـع، إحداهـا هـي التمثـال الرائـع لحيوان مجتر وجده نوفيل (Neuville) في أم الزويتينية.

1- إلياد، تاريخ المعتقدات...، مرجع سبق ذكره، ص 52.



آثار فنية من العصر الناطوفي

لقد صُنع هذا التمثال من الحجر الرمادي، وهو يجسد، بواقعية كبيرة، حيواناً مجترّاً، بلا رأس، يظهر جالساً، رقبته طويلة وذيله قصير وقوائمه رفيعة، يذكّر شكله بالغزال الذي وُجدت عظامه بكثرة في هذا الموقع، وقد كان التمثال مَطلياً بالمغره الحمراء.



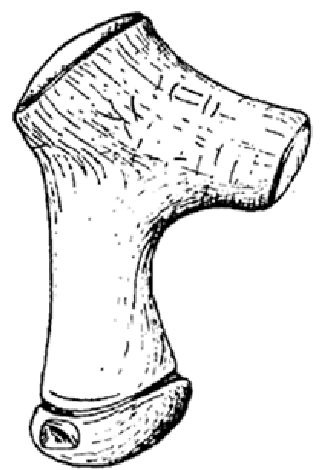
تمثال لحيوان مجتر وجده نوفيل (Neuville) في أم الزويتينية

وهناك أيضاً رأس مختزل بشدة، نُسب من قِبَل ستكليس (Steklis) ويزرائيلي (Yizraely) لغزال، وُجد في السوية الناطوفية، من موقع ناحال أورن [وادي الفلاح] في جبل الكرمل.



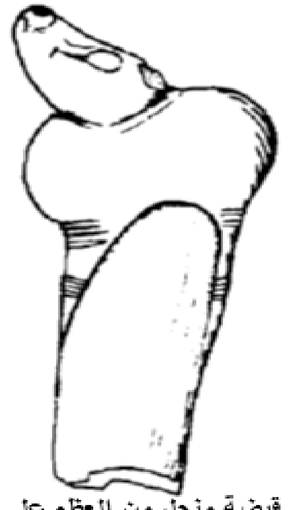
رأس مختزل لغزال، موقع نحال اورن [وادي الفلاح] في جبل الكرمل

كما وُجد في هذا الموقع أيضاً، تمثال آخر أكثر اختزالاً، صُنع من حجر الكالسيت، وله وجه مزدوج، نهايته تشبه رأس حيوان غامض، يفصله عن الجسم «عنق» طويل، فيه دائراتان على شكل العيون.



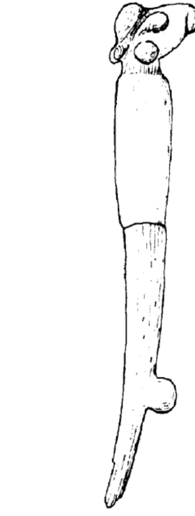
تمثال من موقع نحال اورن
[وادي الفلاح] في جبل الكرمل

وفي نفس الموقع عُثر على قرن غزال غني، محروق ومصقول، يحمل في نهايتيه آثار نقش، إحداها تمثل حيواناً مجترّاً بعيون كبيرة. وفي موقع آخر في جبل الكرمل، هو مغارة الواد، التي نُقّبت من قِبَل جارود، عُثر على قبضة منجل من العظم منحوتة بشكل واقعي جداً تمثّل، حسب مكتشفها، إيلاً فتياً يرضع.



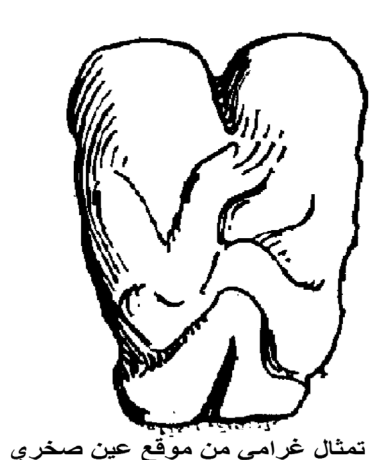
قبضة منجل من العظم على شكل إيلاً فتياً يرضع مغارة الواد جبل الكرمل

وأخيراً فقد وجد تورفيل ــ بيتر (Turville - Petre) في مغارة الكبارا خمسة مقابض مناجل، من العظم، أربعة منها تنتهي على شكل رأس حيوان مجترّ، وقد مثّلت العيون، كما في مغارة الواد، ضخمة، وكانت هذه صفة دائمة، ميّزت الأشكال الفنية خاصة.



مقابض مناجل، من العظم، تنتهي على شكل
رأس حيوان مجتر من مغارة الكبارا

أما الأشكال الإنسانية؛ فهي تضم قبل كل شيء التمثال الغرامي الرائع الذي حصل عليه القس بروي (Breuil) من البدو، ويعتقد نوفيل أن أصل التمثال من موقع عين صخري، في وادي خريطوم لقد صنع هذا التمثال، من حجر الكالسيت، الذي نُحت بطريقة التخطيط والصقل، وهو يمثّل عملية جماع لشخصين جالسين صدراً بصدر.



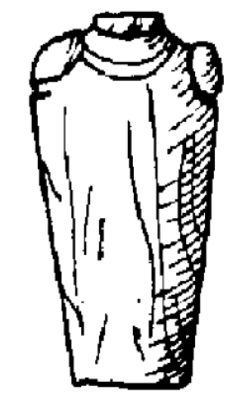
تمثال غرامي من موقع عين صخري

ونحن نتساءل فيما إذا كان التمثال الحجري الآخر الذي وجده ستكليس ويزرائيلي في ناحال أورن [وادي الفلاح]، واعتبر، مرة، نطوفياً، ومرة نيوليتياً، فيما إذا كان هذا التمثال يجسّد، بشكل مختزل، نفس الموضوع. ومن جهة ثانية، فلقد عُثر في مغارة الواد، على رأس صغير من الكالسيت، وهو رغم خشونته يجسّد إنساناً واضحاً.



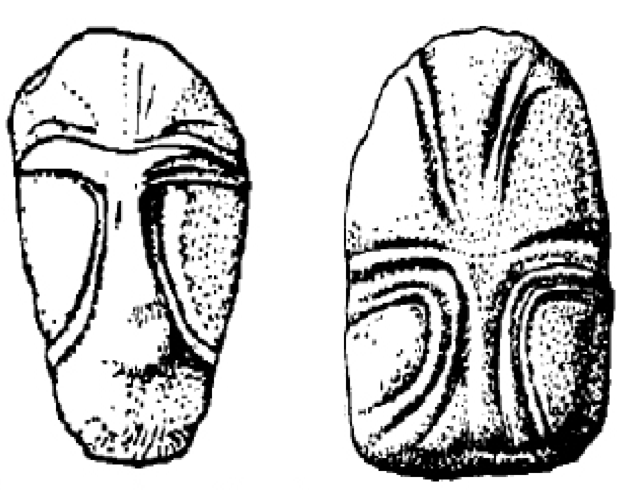
رأس صغير من الكالسيت، من مغارة الواد

وأخيراً فقد وُجد بيرو في عين الملاحة تمثال إنسان من الكلس مَطليّ بالمغرة الحمراء، فقد رأسه، واقتصرت ذراعاه على جذع بسيط، ممّا يجعل من الصعب تحديد جنس هذا التمثال.



انساناً من الكلس، فقد رأسه واقتصرت ذراعاه
على جذع بسيط، من موقع عين الملاحة

وهناك «حصوتان» (Galets) من الكالسيت وُجدتا في نفس الموقع، وتحملان وجهاً إنسانياً، مع أنه لا يمكن قبول هذا التفسير بلا تحفّظ. كما وجد بيرو أيضاً حجرين يحملان أشكالاً هندسية هي خطة متوازية، مستقيمة أو معوجة، يصعب تفسيرها.



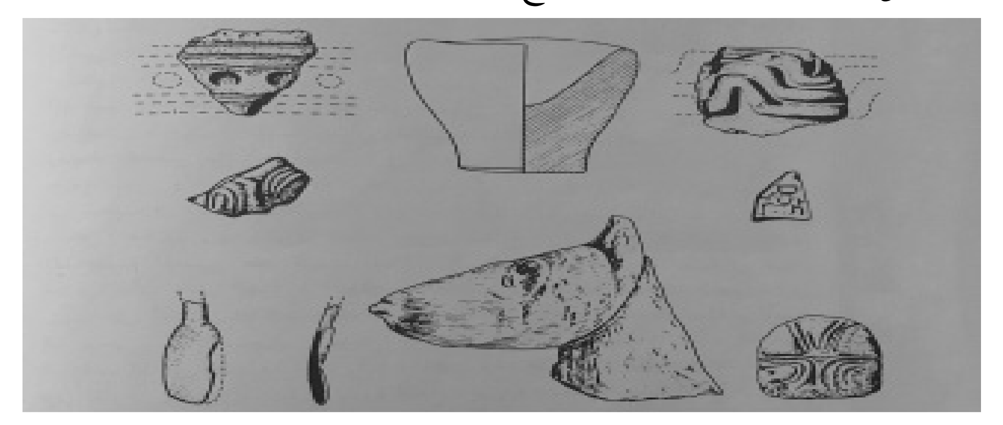
حصوتان من الكالسيت وتحملان وجهاً إنسانياً، وجدتا في عين الملاحة

هذه هي التماثيل الناطوفية التي يجب أن نضيف لها بعض أدوات الزينة التي وُجدت في القبور، والتي تدل أيضاً على إيديولوجيا ذلك العصر، وهذه الأدوات عبارة عن صدف وأسنان، ومن مغارة الواد وُجدت أقراط من العظم، ذات فصّين، من قطعة واحدة، أو من قطعتين متّصلتين.



اقراط من العظم، من مغارة الواد

وهذه الأقراط تذكّر بأنواع مشابهة «أقراط مجنّحة» (Perles a ailettes) تعود إلى عصر الكالكوليت وُجدت في غرب أوربا. وهناك أقراط أخرى (وُجدت في الواد، عرق الأحمر، عين الملاحة) صُنعت من النهايات البارزة لأصابع الغزال «العراقيب» (Phalanges)، التي كان شكلها، ذات الفصين، الدافع لاختيارها. إننا نلاحظ سيادة موضوعين في التماثيل الناطوفية، الأول تصوير حيوانات مجترّة كانت تشكّل فرائس الصيد الرئيسية لدى الناطوفيين، والموضوع الثاني، الذي يعيره أناتي أهمية كبيرة، يعتمد على تصوير المواضع الجنسية. وفي الواقع فإن هذا الموضوع لا يظهر جلياً إلا في تمثال عين صخري. ولكن، ليس من المستحيل أن تكون الأقراط، ذات الفصين، تمثل بدورها الأعضاء الجنسية، كما أن أناتي يعتبر المدقّات البازلتية في عين صخري، والأحجار المصقولة التي وُجدت في مغارة الواد، رمزاً لقضيب الذَّكَر. ويجب القول بأنه من الصعب أن لا تُذكَر المدقة، مهما كانت «بالقضيب»، مع أن الزخارف التي تحملها هذه المدقّات لا تشكّل دَعْماً كافياً، لهذا التفسير.[1] يقول ميرسيا إلياد، إن الرمز الجنسي لمدقّات يد الجرن المنحوتة على شكل قضيب الذَّكَر واضحة بما لا يدع مجالاً للشك حول معانيها السِّحْر ــ دينية.[2]



نقوش ومنحوتات حجرية من قرية عينان الناطوفية: كأس من البازلت، مخطط رأس بشري، أجزاء من أوانٍ مزخرفة، ملعقة عظمية من عينان، رأس غزال من المقبرة في وادي فلاح

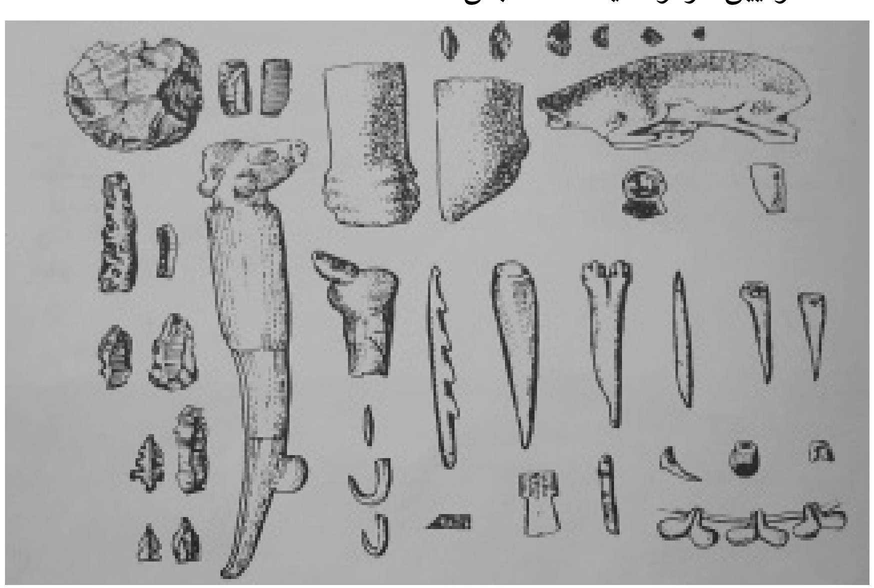
1- كوفان، ديانات...، مرجع سبق ذكره، ص (32-27).

2- إلياد، تاريخ المعتقدات...، مرجع سبق ذكره، ص 52.

يذهب أولبرايت، إلى أنه وُجد من الحضارة الناطوفية في مغارة الواد عضو تذكير من الصوّان المنحوت نحتاً جيداً، ولذلك فقد كانت عبادة عضو التذكير معروفة من قبل في فلسطين. [1] ويبدو أن «أقدم الأمثلة المعروفة للفن التشكيلي في فلسطين على كل حال». [2]

كما، واستخدم الناطوفيين خلاطات لمزج الألوان مجوّفة قليلاً، وما زالت تحتوي على آثار أكسيد الحديديك (المغرة)، وكذلك عُثر على أصداف وقواقع الماء العذب المملوءة بنفس المادة، بالإضافة إلى مثاقب عظمية لثقب الجلود وإبر قصيرة ومستوية ومخارز ومناجل ذات مقابض من العظام وملاعق مستوية. [3]

إن العثور على مثاقب عظمية لثقب الجلود وإبر قصيرة ومستوية ومخارز يشير إلى أن الناطوفيين عرفوا حياكة الملابس.



أدوات وأسلحة ومواد وحلي من الحضارة الناطوفية في فلسطين:
منجل كامل من مغارة الكبارا، مقبض منجل وغزال من مغارة الواد، حيوان مجتر من أم الزويتينية.

1- أولبرايت، آثار فلسطين، مرجع سبق ذكره، ص 64.

2- د. حتّى، تاريخ...، مرجع سبق ذكره، ص (20-21).

3- ميلارت، أقدم...، مرجع سبق ذكره، ص 38.

كما وُجد مثال آخر عن الفنون، تمثل باللوحة الحجرية المزخرفة بزخارف محفورة بشكل غائر، وفي داخلها خمس وستون حفرة صغيرة، كما عُثر على ثلاث لوحات حجرية رملية، محفور عليها زخارف هندسية مكوّنة من خطوط دائرية الشكل، مستندة إلى جدار أحد البيوت في موقع وادي الحمة. [1]

1- مجلة دراسات تاريخية (عمان)، خالد محمود أبو غنيمة، بواكير القرى الأولى وبداية الاستقرار في بلاد الشام، العددان (71-72)، كانون ثان ـ حزيران، 2000.

الفصل الخامس

التاريخ يبدأ من أريحا...

«أريحا هي كيان التاريخ مصغّراً»

(جاكوب برونوفسكي، ارتقاء الإنسان) [1]

يداوم العلماء البحث عن محطات حضارية أخرى، تستكمل معرفة الباحث عن هذه المرحلة الحاسمة في خط سير تطوّره الحضاري. ولاشك أن الإنسان قد مرّ بمرحلة انتقال، مهّدت إلى أحداث هذه الثورة الاقتصادية الهامة (الزراعة) في حياته، والتي أدّت إلى نقلته نحو إنشاء القرى الأولى، والاستقرار فيها، ومواصلة تقدّمه الجديد في كافة المجالات المادية والفكرية، وبادئاً بذلك المرحلة الحاسمة، وهي «ثورة العصر الحجري الحديث».

انتقلت فلسطين إلى العصر الحجري الحديث بمرحلتيه النيوليت ما قبل الفخار (أ) و(ب)، وما بعد الفخار (8000 ــ 4500) ق.م تقريباً، حيث بدأ الإنسان حياة الاستقرار والتفاعل الإيجابي مع بيئته. حيث ازدادت خبرته ومعرفته المتنامية لظروفه المناخية ولأهمية التواجد بالقرب من مصادر المياه وقدرته على السيطرة على الطبيعة وتسخيرها لمصلحته.

1- برونوفسكي، ارتقاء الإنسان، مرجع سبق ذكره، ص 42.



منظر حصاد خارج أسوار أريحا حوالي سنة 7000 قبل الميلاد، يستعمل الرجال مناجل قرن الوعل والخشب ثبتت بها نصال من حجر الصوان لحصاد القمح. والنساء في طريقهن للمساعدة في الحصاد، والحقل يروى من خندق ينقل الماء من عين الماء (سونياكول، ثورة العصر الحجري الحديث).

العصر النيوليت ما قبل الفخار (أ)

يمكن أن نعتبر الحضارة التي ازدهرت في الألف الثامن والسابع ق.م، في فلسطين، وفي أطرافها، كتطوّر من العصر الناطوفي، هذه الحضارة تمثّلت في سويات عصر ما قبل النيوليت، والنيوليت ما قبل الفخار (أ) في أريحا، وفي الطبقة الثانية من ناحال أورن [وادي الفلاح، يقع في الجهة الغربية من منحدرات جبال الكرمل على بُعد 10 كم جنوب حيفا] والسويات السادسة حتّى الرابعة في البيضا، والطبقات الحديثة، الرابعة حتّى الأولى، في موقع الخيام. الذي غالباً ما أُسميت صناعاته بـ«الناطوفية الأخيرة».

يمثّل تل السلطان، وهو التسمية المعاصرة لأقدم تلول منطقة أريحا، أول بقع للاستقرار والسكن في العالم، ويبلغ ارتفاع التل حوالي العشرين متراً، ويبلغ طوله حوالي 300 متراً، وعرضه 160 متراً. ويقع تل السلطان إلى الشمال من البحر الميت، وعلى ارتفاع 240 متراً من مستوى سطح البحر تقريباً.

لقد نقب الموقع لأول مرة من قِبَل المنقّب شارل فارن Charles Warren وذلك في عام 1868، وعقب ذلك في العام 1907، تم تنقيب الموقع من قِبَل بعثة مشتركة نمساوية ــ ألمانية. ثمّ نقب الموقع مرة ثالثة المنقّب جون غارستانغ John Garstang عام 1930 وحتّى عام 1935. ثمّ قامت كاثلين كينيون بالتنقيب ما بين عامي (1952-1958). لقد تم اكتشاف 25 طبقة سكنية تُغطّى فترة إمدادها ألف عام (8350-7350 ق.م).

الحقيقة الجديرة بالملاحظة هي أن نبع أريحا الذي أصبح موقعاً لأقدم مدينة صغيرة معروفة، يبدو أنه كان مقدّساً قبل بداية الحضارة. فعلى الأرض البكر أسفل

أنقاض العصر الحجري الحديث وأنقاض الحضارات المتأخرة وجدت آلات من العصر الحجري المتوسط مع بقايا بناية تعود إلى حوالي سنة 7800 قبل الميلاد، وكانت في هذه البيانة صنارات لحمل أعمدة ضخمة، وربّما كانت هذه أعمدة طوطمية، ممّا يدل على أن البناية كانت مكاناً مقدّساً أو مزاراً. [1]

يذهب جـ. هاوكس ول. وولى، إلى أن أول حدث لتعمير أريحا هو إقامة ضريح، وربّما تخليداً من قبيلة صيادي الحضارة الناطوفية السفلى لحياة أصحاب النبع. وتبع ذلك أن استقرت نفس الجماعات نهائياً، أو في فترات فصلية منتظمة في أكواخ واهية من نوع تلك الأكواخ التي تنتمي إلى الاستقرار النصف رعوي. هذه المحلات التي يمكن أن تُطلق عليها اسم محلات قبيل العصر الحجري الحديث (Proto- Neolithic)، نمت بدون انقطاع حضاري إلى مجتمع كامل للعصر الحجري الحديث الذي يعتبر بمنازله وحصونه أول مدينة بمعنى الكلمة، أما عن الأدوات التي وُجدت في أريحا؛ فما زالت تظهر بها سمات الحضارة الناطوفية، وعن طريق التحليل الكربونى 14 أرجع عمر الضريح إلى عام 7800 ق. م. [2]

وتحاول د.كينيون إيجاد علاقة بين ذلك الضريح أو المعبد بحكم تواجده بجوار النبع، وبين تقديس الماء. ويصعب التيقّن من ذلك التفسير، ولكن، ممّا لا شك فيه أن ذلك الإنسان القديم قد اتجه إلى الاعتقاد بضرورة تجهيز مكان معين لسكنى الإله أو الآلهة التي اتجه إلى الإيمان بها، حتّى يستطيع التقرب إليها في ذلك المكان بالذات، والاطمئنان إلى معاونتها له في حياته الزراعية الناشئة، ولما كان الماء عنصراً حيوياً أساسياً في تلك الحياة الزراعية، فربّما اتجه إلى تجهيز ذلك المعبد لعبادة القوة

1- سونياكول، ثورة...، مرجع سبق ذكره، ص 45.

2- جـ. هاوكس ول. وولى، أضواء على العصر الحجري الحديث، ترجمة: د. يسرى عبد الرازق الجوهري، بيروت، مكتبة الجامعة العربية، 1967، ص 28.

المقدّسة الممثّلة في الطاقة المائية، ولكن، يصعب التثبيت نهائياً من ذلك الرأي لعدم توفّر الأدلّة المدوّية في تلك المرحلة. [1]

إذ يمكننا أن نتصوّر جماعات من الصيادين وجامعي القوت المتجولين البدائيين وهم يتردّدون على ضريحهم، ربّما فقط في فترة معينة من السنة. وما تبع ذلك من نموّ محلة عمرانية مستقرّة مكوّنة من أكواخ مصنوعة من الطين والقشّ. وبينما ظل أصحابها يصنعون أدواتهم وأسلحتهم بنفس الطريقة التي كان يصنع بها أسلافهم أدواتهم، إلا أنهم ربّما بدؤوا في هذه الفترة ممارسة زراعة الحبوب على نطاق بسيط...وقد اتخذت نفس هذه الجماعات بعد ذلك خطوة تقدّموا نحو الأمام، وذلك منذ 9000 سنة مضت. فعلى طول سلسلة من مخلّفات الأكواخ التي هُدمت وأُعيد بناؤها قامت أول محلة عمرانية، اشتملت منازل دائرية كبيرة الحجم، وكانت تشبه مجمعاً لخلية نحل كبيرة، ومحاطة بسور مبنى قلعة مستديرة. وقد أُطلق بحقّ على هذه المحلة الأولى – التي تمثّل العصر الحجري الحديث – بكامل صفاته في أريحا – اسم مدينة. [2]

يصف برونوفسكي أريحا بالقول: كان لها بضعة ملامح تجعلها متفردة تاريخياً، وتمنحها وضعاً رمزياً خاصاً. فهي – على خلاف القرى المَنسية في المواقع الأخرى – تذكارية، هي أقدم من الإنجيل، إنها طبقات فوق طبقات من التاريخ، إنها مدينة. كانت مدينة أريحا القديمة – ذات الماء الحلو – واحة على حافة الصحراء، تفجّر ينبوعها من أزمان سحيقة قبل التاريخ، واستمر حتّى زماننا هذا. هنا جاء الماء، وجاء القمح سوياً، هنا – بمعنى من المعاني – ابتدأ الإنسان حضارته. هنا أيضاً – من الصحراء – جاء البدو بأوجههم المغبرة ينظرون في حماس إلى الطريقة الجديدة في

1- د. الناضروي، المدخل في...، مرجع سبق ذكره، ص (36-37).

2- جـ. هاوكس ول. وولى، أضواء...، مرجع سبق ذكره، ص (32-33).

الحياة. كان هناك القمح والماء اللذان يصنعان الحضارة، لقد أحالا التلال القاحلة إلى أقدم مدينة في العالم. [1]

ترمز أريحا نفسها إلى التقدّم العاصف لجملة من جوانب مؤسسيها الذي تتسم به «ثورة العصر الحجري الحديث». إذ صارت ترى معالجة أشكال معمارية معينة، وكذلك تكنيك البناء. وظهرت تحصينات معقّدة إلى درجة معينة من أسوار حجرية وأبراج وخنادق، وكأنها تشير إلى تفوّق أقدم المستوطنات الزراعية على خلفية ما يحيط بها من قبائل الصيادين وجامعي النباتات.

فقد كانت مساحة أريحا في الألفين الثامن والسابع قبل الميلاد، تصل إلى 4 هكتارات، وعدد سكانها يتراوح بين ألفين وثلاثة آلاف نسمة، وكانت ذات مساكن متراصّة من الطين، ومحاطة بسور حجري عالي (حتّى 4.5 متر) يصل سمكه إلى (1.7متر). وعُثر على برج حجري، قطره (9 متر) وارتفاعه (9 متر أيضاً). وكانت البلدة محاطة علاوة على السور بخندق عرضه (8 متر) وعمقه (2.6 متر).


مشهد لبرج أريحا ما قبل الفخار (أ)

1- برونوفسكي، ارتقاء الإنسان، مرجع سبق ذكره، ص 41.

إن اكتشاف مستوطنة محصنة، وُجدت على تخوم العصرين الحجريين الأوسط، والحديث، (الحضارة الطاحونة ذات الصلة بالناطوفية التي مازالت تُعرف على نطاق ضيق حتّى الآن) كان، كما يكتب دياكونف، مفاجأة كبيرة لعلماء الآثار: كان يفترض حتّى ذلك الحين أن الاشتباكات بين القبائل البدائية لم تكن أكثر من عراك على أرض الصيد أو النساء... ولكن ظروف الحياة في فلسطين في الألفين الثامن والسابع قبل الميلاد، كانت كما يبدو قلقة.. بحيث اضطر السكان إلى أن يُنفقوا الكثير جداً من الوقت على بناء التحصينات القوية أيضاً.[1] ويعتقد أن سكان أريحا قد أعدوا ما يشبه الصهاريج الأرضية لتخزين مياه الأمطار لاستخدامها حين الحاجة. [2] فضلًا عن تلك التحصينات، كُشف عن مبانٍ مركزية، منها معبد وخزّان ماء، بقيت جميعاً بمثابة أحجية، إذ سبقت الأهرامات بنحو 4000 عام. وعدا ما يفترضه ذلك من معرفة لفن البناء، ومن مستوى عال من التقنيات.[3] هذا كله دفع كينون، إلى استنتاج وجود نظام دفاعي قوي ودخول التطور الاجتماعي مرحلة العمران.[4]

يحدّثنا ميلارت عن تحصينات أريحا بالقول، إن الجهد الاستثنائي الذي بُذل في إنشاء هذه التحصينات يعني وجود قوة عمل وفيرة ووجود سلطة مركزية قامت بالتخطيط والتنظيم وتوجيه وقيادة العمل التنفيذي، كما ويعني في نفس الوقت توفّر فائض اقتصادي ومادي لتحمّل التكاليف لإنجاز مثل هذا العمل.[5] وقد دلّت آثارها على وجود إدارة مركزية قوية بها آنذاك، تنظّم شؤونها وإن هناك زعيماً أو حاكماً قوياً

1- غولاييف، المدن الأولى، مرجع سبق ذكره، ص 34.

2- بورهارد برينتيس، نشوء الحضارات القديمة، ترجمة: جبرائيل يوسف، دمشق، الأبجدية للنشر، 1989، ص 32.

3- شوفاني، الموجز في...، مرجع سبق ذكره، ص 36.

4- كوفان، ديانات...، مرجع سبق ذكره، ص 41.

5- ميلارت، أقدم...، مرجع سبق ذكره، ص 47.

لهذه المدينة. [1] هكذا يجوز لنا أن نقول إن أول نواة حكومة نشأت هنا. [2] يقول وليام هاولز، إن أريحا العتيقة كان لها بالفعل كل خصائص المدينة الحقيقة. [3] لذلك اعتبرت أريحا أقدم مدينة في التاريخ.

المباني

تتألف مدينة أريحا من بيوت دائرية الشكل مبنية من قرميد طيني ذي شكل مقوّس، وهذه البيوت مَبنية على أساس من الحجر، وهذا ما يشكّل تطوّراً واضحاً بالمقارنة مع الأكواخ المهلهلة في الفترة السابقة. أما أرضية البيوت؛ فكانت دون مستوى الأرض في الخارج، ويتم النزول إليها عبر باب، له عضادة خشبية نزولاً لبضع درجات. تتألف معظم البيوت من غرفة واحدة دائرية أو بيضوية الشكل، يتراوح قطرها ما بين 4 – 5 أمتار، وتغطي الغرفة قبّة مصنوعة من القصب والجصّ الطيني، أما جدرانها وأرضياتها؛ فهي مغطّاة بالجصّ أيضاً. أما الأبنية الأكثر اتساعاً؛ فكانت تتكوّن من ثلاث غرف. [4]

استمر استخدام المخطط الدائري في بناء النماذج المعمارية كالبيوت السكنية، ولكن، بمساحة أكبر للبيوت، وبداية تقسيم البيوت الدائرية، بوساطة جدران مستقيمة إلى مجموعة من الغرف الصغيرة المساحة ذات الوظائف الخاصة التي وُجدت لتلبّي حاجات سكان تلك القرى الناجمة عن ممارسة الزراعة، وتؤدي وظائف خاصة ومحددة. تُظهر التقسيمات الداخلية للبيوت الداخلية تنوّعاً في عدد الغرف وأشكالها، ففي موقع وادي بكر (نتيف هجدود)،

1- بريتتيس، نشوء الحضارات...، مرجع سبق ذكره، ص 32.

2- محمود العابدي، الحفريات الأثرية في الأردن وفلسطين خلال (1900–1959)، عمان، 1962، ص 4.

3- وليام هاولز، ما وراء التاريخ، ترجمة: د. أحمد أبو زيد، القاهرة، دار نهضة مصر، 1965، ص 189.

4- ميلارت، أقدم...، مرجع سبق ذكره، ص 43.

ووادي الفلاح (ناحال أورن) في فلسطين. فقد تم تقسيم البيت إلى قسمين بوساطة جدار مستقيم. [1]



أطلال أساسات مساكن دائرية، أريحا ما قبل الفخار (أ)

البيئة الحيوانية

حدد دوكو البيئة الحيوانية بالقول: هيمن الغزال في أريحا. وقد اصطيد الغزال في موقع الخيام، في منطقة شبة جافة، ولكنه لم يشكّل في ذلك الموقع أكثر من 14 ٪ من الحيوانات التي سيطر فيها الماعز، وشكّل 83 ٪. وقد برهن دوكو، أن سكان موقع الخيام قد دجّنوا الماعز، وهكذا يكون ذلك أول دليل للتدجين في الشرق الأدنى. ويعتقد زونز أن الماعز قد دُجّن في أريحا منذ عصر ما قبل الفخار، ولكنه لم يستطيع إثبات أن هذا التدجين يعود حتّى عصر النيوليت

1- المجلة الأردنية التاريخ والآثار (عمان)، عبد الحليم الشياب وخالد أبو غنيمة، أرقام وأعداد: إشارات ورموز من العصر الحجري الحديث ما قبل الفخاري في بلاد الشام، المجّلد 6، العدد 2، 2012، ص167.

ما قبل الفخار (أ). [1] وأقدم دليل يُثبت تدجين الماعز وُجد في الطبقات التي سبقت صناعة الفخار في أريحا. [2]

البيئة الاقتصادية

وتبقى مسألة هامة، هذه المسألة هي ماهية الشكل الاقتصادي الذي حصلت من خلاله (أريحا) على ثروتها! يجيب ميلارت، إن التحصينات تدل على وجود الثروة، إلا أن ما في المتناول من أدلّة قليل جداً عن هذه المدينة، لقد كانت تجارة المواشي أول شيء، نقله السكان عندما غادروا أريحا، ولم يكن الصيد وصيد الأسماك أساس التطوّر في المدينة. ولتأمين الطعام لمجتمع من ألفي مواطن أو أكثر، كان لابد من ممارسة الزراعة، على الرغم من أنه من غير المحتمل أن تكون الزراعة قد حقّقت الكثير من ازدهار في مدينة أريحا الواقعة على عمق 200 متر تحت سطح البحر.

لابد إذن من وجود مصادر أخرى للدخل وكان المصدر الرئيسي هو التجارة، وما يؤكد ذلك هو أن أريحا كانت تتمتّع بموقع مناسب لإقامة المشاريع التجارية. فقد كانت المدينة تسيطر على مصادر البحر الميت من الملح والقار والكبريت وكل المنتجات المفيدة للمجتمعات القديمة، والزجاج البركاني الأسود والنفريت والحجر الأخضر من الأناضول، والفيروز من سيناء والودع الأصفر من البحر الميت. [3]

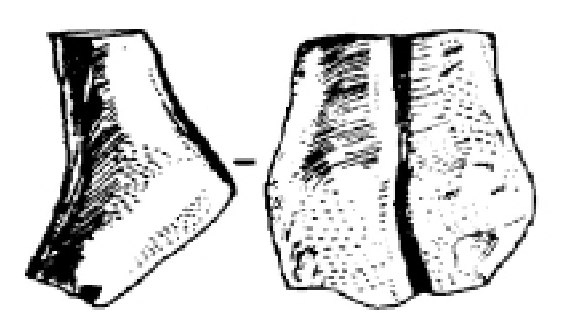
البيئة الدينية

إن الوثائق ذات الطابع الديني لا زالت نادرة، وقد أتت من أريحا والخيام وناحال أورن. وهذه الوثائق أيضاً مختلفة الطابع، فهي أربعة تماثيل صغيرة من

1- كوفان، ديانات...، مرجع سبق ذكره، ص (41-42).
2- سونياكول، ثورة...، مرجع سبق ذكره، ص 20.
3- ميلارت، أقدم...، مرجع سبق ذكره، ص (47-48).

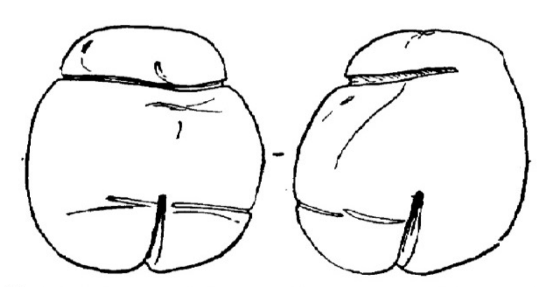
الخيـام وناحـال أورن، ودلائـل شـعائر جنائزية مـن أريحـا، ودلائل شـعائر التضحية بالحيوانات من الخيام (1 ــ 2)

ـ **تماثيل صغيرة من الخيام وناحال أورن (وادي الفلاح)**، فقد تم العثور في الخيام على تمثال نسائي من الحجر الكلسي، تم تحديد جنسه اعتماداً على مؤخّرته فقط، التي نُحتت بشكل بارز، ولكن، دون إظهار للتفاصيل. كما أنه لم يُشر إلى بقية أجزاء الجسم الذي ظهر شكله الجانبي ملتوياً، ممّا جعل المؤخّرة بارزة.



تمثال ذات شكل نسائي من الحجر الكلسي من موقع الخيام ما قبل الفخار (أ)

وفي ناحال أورن [وادي الفلاح] عُثر على تمثال هو بلا شك أحدث قليلاً، ومختلف جداً، شديد الاختزال، وقد أبرز شكله (الرأس والأطراف) من خلال نحت عميق على حصوة حجرية.[1]



تمثال ذات شكل نسائي من الحجر الكلسي من موقع ناحال أورن ما قبل الفخار (أ)

1- كوفان، ديانات...، مرجع سبق ذكره، ص 42.

ـ التضحية بالحيوانات في الخيام

فـي إطـار اقتصـاد التدجيـن، فـإن التضحيـة معقولـة، بقـدر مـا تكـون ممكنة، فهنـاك ظاهرتـان بالغتـا الأهميـة، لاحظهمـا دوكـو، الأولـى هـي الكميـة الكبيـرة للعظـام، وخاصـة عندمـا تكـون عظـام حيوانات صغيـرة قليلـة المقاومة، وهـذا يدل علـى أن تلحيـم الضحايـا حافظ على عدم تكسـير عظامهـا، كما أنها لـم تتعرض إلى حـرارة عاليـة، ممّا يشـير إلى أن الضحيـة لم تُـؤكَل، أو على الأقل، لم تؤكل الأقسـام التـي تـم تحديـد عظامها. وأمـا الظاهـرة الثانيـة ذات الدلالـة؛ فهي غيـاب الجماجم والسـلاميات، ممّـا يتناقـض مـع شـروط الحفـظ الطبيعيـة الأفضـل لهـذه الأجـزاء، ويـدل علـى أن ذلـك كان حالـة مقصـودة. ويفتـرض دوكـو أنـه كان هناك اسـتخدام خـاص لجلـد الماعـز، وأن الرأس والنهايات السـلامية قـد نزعت مع الجلد. وسـواء كان هـذا الافتـراض صحيحـاً، أو أن الـرأس والقوائـم قـد فُصلـت لأهـداف أخرى، فإننـا نلاحـظ معاملة انتقائيـة لبعض أعضاء التضحيـة، مثل هذه المعاملـة لا تتناقض، بـل تتوافـق، مـع التبريـرات الدينيـة لعمليـة قتل تلـك الحيوانـات. ويسـتحضر دوكو فـي هـذا السـياق عـادة التضحيـة بالحيوانـات الصغيـرة كإنتـاج التكاثـر الأول، التي كانت سائدة في فلسطين في العصور التاريخية. [1]

ـ دلائل شعائر جنائزية من أريحا

تقـول كينيون، لقـد عُرفت «عقيـدة الجماجـم» (Cultes des Cranes) التي قيل عنهـا الكثيـر فـي عصـر النيوليـت مـا قبـل الفخـار (ب)، وذلك منـذ عصـر النيوليت ما قبـل الفخـار(أ)، الـذي عُثر منـه علـى عـدد كبير مـن الجماجـم التـي فُصلت عن الأجسـاد. العديـد مـن هـذه الجماجـم كان موضوعـاً علـى شـكل دائـرة ووجوههـا

1- كوفان، ديانات...، مرجع سبق ذكره، ص (45-46).

نحـو الداخـل. وفـي حالـة أخـرى، شـكّلت ثـلاث مجموعـات، كل مجموعة ثلاث جماجـم، تنظـر كلهـا بنفـس الاتجـاه. وفـي حالـة ثالثـة «فـي حـوض غريـب مـن الكلـس»، وبقـرب جثـة طفل كاملـة، وُجـدت «مجموعة مـن جماجم الأطفـال التي تـدل فقراتهـا العنقيـة علـى أن الـرؤوس قـد قُطعـت، ولـم تُجمع هكـذا ببسـاطة في القبـور». وتتحـدّث المؤلفة في هذا السـياق عـن عقيدة «التضحية بالأطفال» لسـبب، لا نسـتطيع إدراكـه. وكمـا فـي البقايـا الناطوفيـة المشـابهة، فليـس هناك ما يـدل فيما إذا كانـت الرؤوس قـد قُطعت وأصحابها أحيـاء، وما إذا كان الدافـع لموت أصحابها هـو جمـع هذه الجماجـم. ويمكن الاعتقـاد أنه بمناسـبة موت الطفل، الـذي وُجدت جثتـه كاملـة، قد أُعيد دفـن جماجم مأخوذة من قبور سـابقة وقديمة. وهـذا الاحتمال يقوّيه التصاق الفقرات الرقبية. [1]

تقاليد الدفن

اسـتمرت تقاليـد الدفـن دون تغيير؛ حيـث كان الموتى يُدفنـون تحت أرضيات الغـرف، كمـا وأن العثور علـى مجموعات مـن الجماجم البشـرية دون هياكل عظمية يوحـي بالطريقـة الثانيـة للدفـن المعروفـة بالدفـن الثانـوي. أمـا وجـود مجموعة من جماجـم الأطفـال تحت بناء يشـبه الحـوض؛ فربما يكون بقايـا الضحايا البشـرية. [2] وهنـاك دلائـل تشـير إلـى أن بعض الأسـر كانـت تدفن جمجمـة أحد أسـلافها تحت المنـزل الجديـد، كنـوع مـن حجـر التأسـيس للبنـاء، فتوضـع فـي الزاوية عنـد التقاء جداريـن. ويبـدو أن الهـدف مـن هـذه العـادة هـو الاحتفـاظ بالقـوة الروحيـة لذلك السلف في البيت. [3]

1- كوفان، ديانات...، مرجع سبق ذكره، ص 47.
2- ميلارت، أقدم...، مرجع سبق ذكره، ص 48.
3- السواح، دين الإنسان، مرجع سبق ذكره، ص 214.

العصر النيوليت ما قبل الفخار (ب)

انتشرت في حوالي الألف السابع قبل الميلاد حضارة جديدة لم تكن تعرف استخدام الفخار، يمكننا التعرف على هذه الحضارة بشكل أفضل من خلال مدينة أريحا، إذ يبدو أن السكان القدماء قد حل محلهم نهائياً سكان آخرون ذوو حضارة متميزة، وإن كان له صلة بطريق غير مباشرة بالحضارة السابقة [الناطوفية]. هذه هي الحضارة الطاحونية (Tahunian Culture).

يقول شوفاني، نُسبت الحضارة الطاحونية إلى وادي الطاحون في جبال القدس، وهي مرحلة متطوّرة عن الناطوفية، ومتكيّفة أكثر وفق الأحوال المناخية الجديدة. وهناك مَن يرى أن الناطوفية، التي كانت واسعة الانتشار، قد أخلت مكانها لثلاثة أنماط من الاستيطان المتنقّل إلى الزراعة: ساحلي، في وادي فلاح، جبلي، في وادي الطاحون، وغوري، في أريحا، وقد أدّت العوامل المحلية دوراً في تمايزها بعد نشوئها.[1]

يحدّثنا جـ. هاوكس وول. وولى، عن هذه الحضارة، نظراً لأن أصحاب هذه الحضارة كانوا بعيدين عن أريحا، فقد مارسوا الحياة النصف رعوية، وحافظوا على تقاليد العصر الحجري المتوسط الخاصة بالصيد وجمع الطعام والعيش في الكهوف، بينما كانوا في نفس الوقت يشتغلون بالزراعة المتنقلة، ويحتفظون بقطعان الماعز. هذا وقد انحدرت حضارتهم من الحضارة الناطوفية السفلي، ولكن، في اتجاه مخالف لأصحاب حضارة أريحا. أما كيف تمكن الطاحونيون من الحصول على واحة نضرة

1- شوفاني، الموجز في...، مرجع سبق ذكره، ص 36.

وممارسة حياة مدنية ومستقرة، فما زالت حتّى الآن مشكلة تاريخية ــ ليس لها حل. ولابد أن حياتهم كانت بالتأكيد على النقيض من أقاربهم سكان الكهوف، ومثل هذا التناقض ذلك الموجود بين سكان مدن فلسطين الحديثة وحياة البدوي الذي يعيش في خيام مصنوعة من شعر الماعز بالقرب من ضواحي المدينة.[1]



تصور ساحة في أريحا بحدود سنة 6250 قبل الميلاد، إحدى النساء تطحن الحبوب بطاحنة وتجمع الطحين في إناء من الحجر الجيري، والمرأة التحتية خلفها تفرغ الحبوب الغذائية في حفرة للخزن (سونياكول، ثورة العصر الحجري الحديث).

1- جـ. هاوكس ول. وولى، أضواء...، مرجع سبق ذكره، ص (33-34).

فن العمارة

هنـاك أدلـة واضحـة على تطـور فـن العمارة فـي ذلك العصـر؛ حيـث يبدو أن المسـتوطنات قـد أصبحـت أكبـر حجمـاً مـن سـالفتها، وكانت علـى ما يبـدو مزوّدة بتحصينـات على شـكل أسـوار مَبنيـة من كتـل كبيرة مـن الحجارة فـي منتصف ذلك العصـر تقريبـاً. كانـت المرحلـة طويلـة جداً، وقـد عُثر في بعـض الأماكـن على ما لا يقـل عـن (26) أرضية جصيـة، بعضها فوق بعـض. كانت البيوت مَبنيـة على بلاطات علـى شـكل السـيكار، ويظهـر علـى السـطح العلـوي للبلاطة آثـار بصمـات أصابع، كانـت قـد سـاعدت علـى وضـع الهـاون بيـن هـذه البلاطـات. كانـت الأساسـات الحجريـة شـائعة جداً، وكانت الجدران والأرضيات مَكسـوّة بالجـص. وكان الجصّ الكلسـي المصقـول مدهونـاً باللون الأحمـر، ولكن طول الفتـرة الزمنية لهـذا الدهان الأحمـر علـى الجـدران كان غير معـروف. ويمكننـا هنـا أن نفترض أن ذلـك الدهان كان مقتصـراً علـى الجزء السـفلي مـن جدران الغـرف، وعلى ارتفاع متـر واحد فقط، أمـا القسـم العلوي مـن الجـدار؛ فقـد كان مدهونـاً باللـون (الكريم)، لكـي لا تكون الغرفـة مظلمـة. وفـي إحـدى المراحل، شـوهدت آثار لرسـوم تمثّل شـجرة أو عظام سمكة على الأرض.

لـم تكـن كل الأرضيـات مدهونـة باللون الأحمـر، فقد كانـتورديـة أحياناً أو ملوّنـة بالكريـم أو اللـون الأبيـض. أمـا المواقـد؛ فقـد كانـت علـى شـكل أحـواض مستطيلة عميقـة ومحـددة بالجـص. كانـت مداخـل الغـرف واسـعة ومزدوجـة وعضـادات الأبواب دائرية الشـكل. أما الأفـران والمواقد؛ فقد وُجـدت في الباحات التـي كانـت تتـمّ فيهـا الاتصـالات بيـن النـاس بـدلاً مـن الشـوارع. أمـا عـن شـكل مخطط المدينة؛ فهو غير معروف لسوء الحظ. [1]

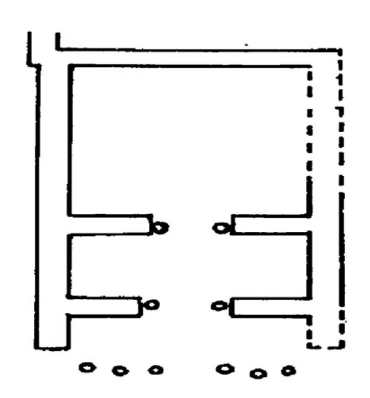
1- ميلارت، أقدم...، مرجع سبق ذكره، ص (52-54).

تشير مخططات القرى الزراعية والوحدات البنائية فيها إلى تقدّم إنسان العصر الحجري الحديث ما قبل الفخاري (ب) في بلاد الشام، وامتلاكه عناصر أساسية في مجال التخطيط المعماري، ممّا يمكن من خلاله الاستدلال على معرفة الإنسان لأساسيات القياس والهندسة، فإقامة القرى الزراعية حسب مخططات مسبقة التصميم واضحة المعالم عند سكان تلك القرى، تأخذ بالحسبان التخطيط والتنظيم في إنشاء منشآت القرى حسب رؤية واضحة المعالم لدى سكانها من خلال تشييد المنشآت على امتداد الأزقة أو حول ساحات خارجية عامة. كما في أريحا، والمنحطة (منهاتا)، وعتليت، وكفر الهريش (كفار هاهوريش)، وخربة الخالدية (يفتاحيل) في فلسطين. وكذلك كان في التشابه العام في المخطط العام للبيوت والمنشآت في المواقع المختلفة، والتنوّع في حجم الغرف ومساحاتها في الموقع الواحد، أو في المواقع المختلفة، دلالة واضحة على أن الإنسان في تلك الفترة كان ملماً ببعض الجوانب في الأمور الهندسية، ويقيم مبانيه المختلفة استناداً إلى قواعد حسابية واضحة، وكان يملك أساليب دقيقة للقياس، وإن كنا في الوقت الحاضر لا نزال نجهلها، فإن امتلاكه لها يتضح من خلال التشابه أو الاختلاف في مساحة البيوت في الموقع الواحد.[1]

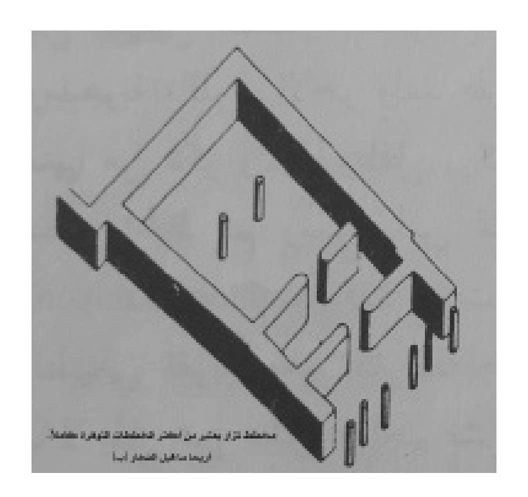
الهياكل

كُشف عن العديد من الأبنية، ذات الأشكال الغريبة، سواء، من قِبَل كينون أو في أثناء تنقيبات غارستانغ الأولى، وقد فُسّرت هذه الأبنية من قِبَل مكتشفيها على أنها معابد.

1- المجلة الأردنية التاريخ والآثار (عمان)، عبد الحليم الشياب وخالد أبو غنيمة، أرقام وأعداد: إشارات ورموز من العصر الحجري الحديث ما قبل الفخاري في بلاد الشام، المجّلد 6، العدد 2، 2012، ص168.



مخطط بناء ديني (مزار) أريحا ما قبل الفخار (ب)



لقد وُجد البناء الأول من قِبَل غارستانغ (Gerstang et Garstang 1940 p. 48-50)، وتتألف من مدخل برواق، له ستة أوتاد، تلي المدخل باحة، فيها قواعد لأربعة أعمدة، كانت ترفع السقف، وأخيراً في صور البناء صالة 4×6 أمتار. لقد عُثر على عدة تماثيل صغيرة من الطين من منطقة خارج المدخل، لذلك فإن على أساس مخطط هذا البناء فقط، والقرب النسبي للتماثيل، اعتُبر البناء ذي وظيفة غير عادية وهيكلاً دينياً. [1]

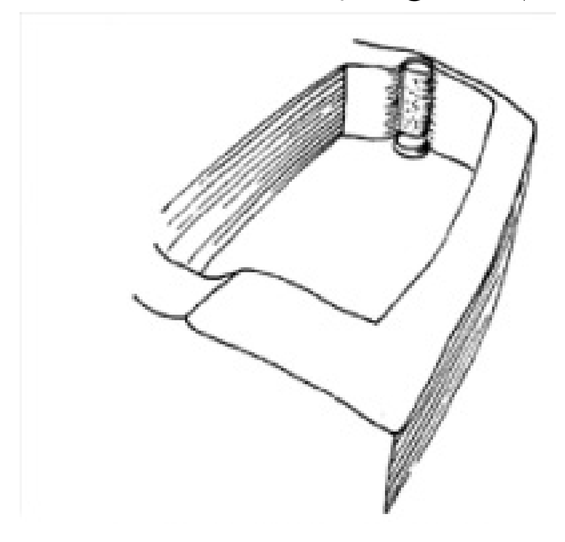
يقول ميلارت عن هذا البناء إنه المخطط الأكثر كمالاً للبناء المتوفر، فكان يشبه الميكارون، يتميز بوجود أعمدة، تؤدي من الباحة إلى البناء. [2]

وقد كشفت كينيون بدورها بناء، تألف من غرفة كبيرة 6×4 أمتار، حُفر في وسطها حوض، فيه آثار نار أيضاً في زوايا هذه الغرفة المركزية، ظهرت أنواع من المذابح الدائرية ذات السقوف المعقودة، كما وَجدت هذه المنقّبة في ذلك البناء تمثالين نسائيين، ولكن كينيون لم تقدم حتّى الآن أي مخطط يوضح حقيقة وصفها هذا. وأخيراً فقد كُشف عن بيت عادي قسم بواسطة جدار، وفي إحدى الغرف حُفرت فرضة دائرية،

1- كوفان، ديانات...، مرجع سبق ذكره، ص 55.

2- ميلارت، أقدم...، مرجع سبق ذكره، ص 54.

وفيها حجر خام كبير، يظهر وكأنه قاعدة، وبقربه وُجد عامود صغير وغريب من الحجر البركاني، طوله 46 سم، وقطره 18 سم، يُعتقد أنه وُضع على تلك القاعدة. وقد فسّرت المؤلفة هذا الاكتشاف على أنه يمثّل «مُصلًّى عائلي» (Family Chapel)، وشبّهت العمود الصغير بالنصب المُسمّى مسبوت (Masseboth) لدى الساميين. [1]



مخطط لبناء ديني (مزار) أريحا ما قبل الفخار (ب)

في ذلك يقول أولبرايت، وفي أريحا نجد أقدم بيوت ومعابد مستديمة معروفة لنا حتّى الآن، جدرانها من جواليص الطين أو من الطوب اللبن المستدير الصغير الحجم. واحتوى المعبد على بوابة، كانت في الأصل محمولة على ستة أعمدة خشبية، وغرفة أمامية متّسعة، وحجرة داخلية كبيرة. وفي هذا المبنى وحوله لم توجد المستلزمات المنزلية العادية، بل وُجد بدلاً منها كثير من التماثيل الصغيرة لحيوانات مثل الغنم والماشية الكبيرة والماعز والخنازير، كما وُجدت أيضاً نماذج من المرل لأعضاء التذكير وغيرها. [2]

1- كوفان، ديانات...، مرجع سبق ذكره، ص 55.

2- أولبرايت، آثار فلسطين، مرجع سبق ذكره، ص 64.

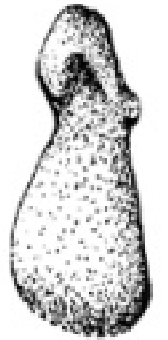
التماثيل



تمثال لشكل حيواني (بقرة) من أريحا ما قبل الفخار (ب)

إن التماثيل الصغيرة من الطين التي وجدتها كينيون أتت من المعبد ذي المحاريب الأربعة، وهي تمثل أشكالاً حيوانية لبقريات منوّعة، واحدة منها واضحة الصفات.

وهناك تمثالان نسائيان، أعدنا رسم أحدهما اعتماداً على صورته التي نشرتها كينيون، وهي تحمل ملامح غامضة، رأسها مكسور، وقد وُصفت كالتالي: ترتدي ثوباً طويلاً فضفاضاً، ضيّقاً في خصره، أذرعها مَثنية (Akimbo) والأيدي تحت الصدر، وتلاحظ المؤلفة أن هذه الوضعية تمثّل الشكل الاصطلاحي «للربّة الأمّ» الذي وُجد في العديد من حضارات الشرق الأدنى من العصر اللاحق. إن صورة الربّة الأمّ ذات الرداء الذي يتباين شكله مع شكل التمثال، لم تظهر قبل العصور التاريخية التي عُرفت من سوريا وفلسطين والأناضول، ومن جهة أخرى، فإن وجود القاعدة العريضة التي تُعطي التمثال شكلاً مخروطياً، لا يمكن أن تكون وحدها دليلاً على كونه مرتدياً.





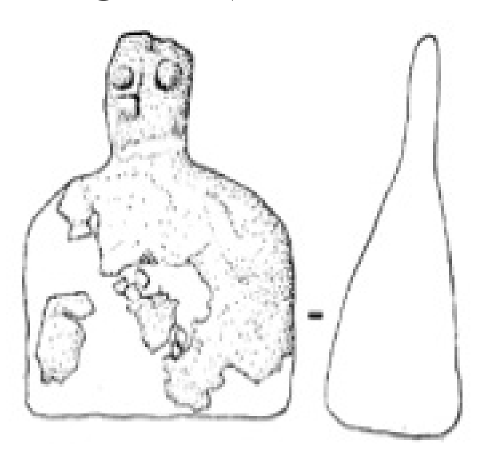
تمثالان نسائيان من أريحا ما قبل الفخار (ب)

لقد وُجد نوع مختلف تماماً من التماثيل من قِبَل غارستانغ، ثمّ من قِبَل كينيون، وحسب غارستانغ، فإن هذه التماثيل وُجدت في سوية عرفت الفخار، ولكن كينيون، التي درست الستراتغرافيا بدقة كبيرة، ترجِّع تأريخ هذه السوية على نهاية عصر ما قبل الفخار، أنها في هذه المرة تماثيل حقيقية، لها حجم كبير مصنوعة من الطين، على قاعدة من القصب، مقطعها مسطح جداً؛ أي أنها صُنعت بشكل يسمح برؤيتها من الأمام. لقد كانت التماثيل التي وجدها غارستانغ في حالة مشوّهة كثيراً، وهي تضم، حسب هذا المؤلف، مجموعتين تتألف كل واحدة من «ثلاثي» لرجل وامرأة وطفل، الرجل صُوّر تقريباً بالحجم الطبيعي، والمرأة بنصف الحجم، والطفل ليس أكبر من حجم اللعبة تقريباً، وكان الطين الذي صُنعت منه التماثيل أملساً ومَطلياً بعجينة حمراء. إن العناصر الوحيدة التي بقيت واضحة ومحفوظة في المجموعة الأولى، هو الرأس الجميل جداً، والذي تدل لحيته المبسطة والممثلة بواسطة خطوط، على أنه رجل، وفي المجموعة الثانية هناك قدم، بأصابعها الدقيقة، التي حفظت بفضل تعرضها للحريق النصفي من موقد وُجدت بجواره. وأما اعتبار بعض التماثيل تعود لنساء أو لأطفال؛ فقد اعتمد، فقط، على كون الأجزاء التي نُسبت لهذه التماثيل أصغر من أجزاء التماثيل المنسوبة للرجال، وهذا ما يجعل فرضية غارستانغ حول المجموعات «الثلاثية» هشة بقدر ما هي هشة التماثيل نفسها.



تمثال رأس لرجل تدل لحيته من أريحا ما قبل الفخار (ب)

إن الأجزاء المشابهة التي عثر عليها من قبل السيدة كينيون، أمكن ترميمها بشكل أفضل لأنها ضمت رأساً، أكثر تبسيطاً من الرأس الذي وجده غارستانغ، كما ضمت الصدر أيضاً. وأخيراً فهناك تمثال آخر، يستحق الذكر ويعود لعصر النيوليت ما قبل الفخار (ب) من أريحا وهو رأس من العظم قفاه مسطح. [1]



تماثيل آدمية من أريحا ما قبل الفخار (ب)

لم يقتصر التعبير عن إلهة الأمومة على مجرد تمثيلها في شكل امرأة مبالغ نسبياً بعض اجزاء الاخصاب فيها، بل لقد انفردت حضارة أريحا في مرحلة العصر الحجري الحديث الصميم بتواجد مجموعات ثلاثية من التماثيل تتكون كل مجموعة منها من رجل وامرأة وطفل. والواقع أن ذلك التمثيل الاخير يضفي صورة حية على تجسيم التعبير عن ظاهرة الخلق الجديد. [2] والأمثلة المنشورة من هذه التماثيل ليس لها نظير معروف من العصور الأقدم منها أو الأحدث. [3] وهو أعظم ثالوث عبد منذ ثلاثة آلاف عام مضت. [4]

1- كوفان، ديانات...، مرجع سبق ذكره، ص (57-59).

2- د. الناضوري،:المدخل في التطور التاريخي للفكر الديني، مرجع سبق ذكره، ص (33-34).

3- أولبرايت، آثار فلسطين، مرجع سبق ذكره، ص 65.

4- جـ. هاوكس ول. وولى، أضواء...، مرجع سبق ذكره، ص 36.

يشير إلياد، إلى أن هذه الاكتشافات تدل على عبادة الخصوبة، واعتقد كارتان، وجود امكانية لمماثلة هذه البقايا بأقدم ثلاثي الهي معروف، مقدمة على الأرجح، ميثولوجيا مشابهة لتلك التي ستسود بعدئذ في الشرق الأوسط، إلا أن هذا التفسير قد جوبه بمعارضة أيضاً. [1]

من جهة أخرى فقد وجد ما لا يقل عن عشرة جماجم بشرية ذات ملامح مصنوعة من الجص بشكل يجوز على الاعجاب وقد وضعت ودعات صفراء مكان العينين. لقد كان في العديد من هذه الجماجم والتي كانت تستعمل لأغراض دينية لدى الاسلاف اثار من الألوان للدلالة على الشعر والشنب. ان هذه التماثيل تعطى صورة واضحة عن شكل السكان في أريحا في تلك الأيام. لقد أصبح الشكل الفيزيولوجي للإنسان أكثر تطوراً وجمالاً من النموذج الناطوفي في الفترة السابقة المعروف بإنسان البحر المتوسط القديم.[2]



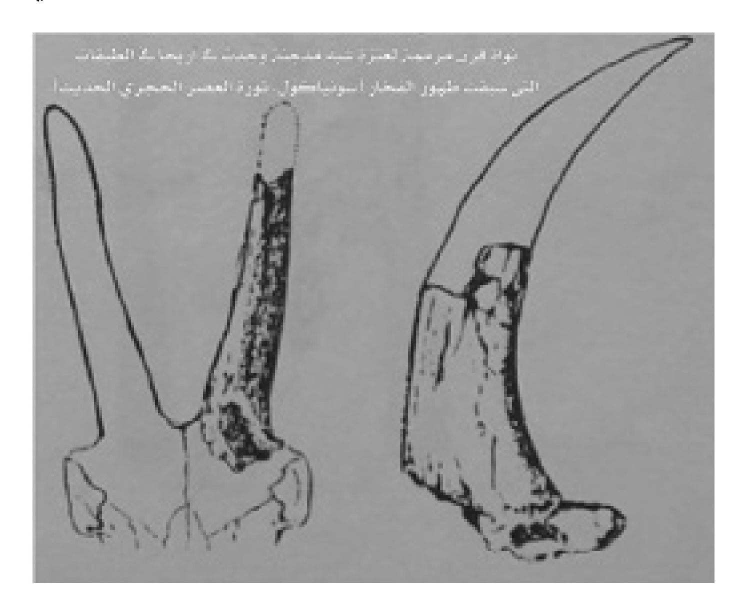
جمجمة بشرية، الوجه من الجبس، والعينان من أصداف صفراء.
أريحا ما قبل الفخار (ب)

1- إلياد، تاريخ المعتقدات...، مرجع سبق ذكره، ص 64.

2- ميلارت، أقدم...، مرجع سبق ذكره، ص (54-56).

البيئة الحيوانية والأقتصادية

اكتشفت أشكال نذرية من الطين تمثّل حيوانات داجنة كالبقر والماعز والغنم والخنازير في مزار في أريحا تعود إلى أواخر الألف السادس ق.م. [1] ونسبة كبيرة من العظام التي عُثر عليها كانت خاصة بالوعل وبعض الأنواع البرية الأخرى. وكل هذه البقايا إلى جانب رؤوس السهام كلها أدلة كافية؛ لتبرهن على أنه رغم وجود الطابع المدني هنا، إلا أن الصيد كان لا يزال يمثّل مورداً اقتصادياً ثانوياً هاماً في أريحا. [2]



البيئة الصناعية

أما في مجال الصناعة الحجرية؛ فإن رؤوس السهام وبعضها كان له ساق، وكذلك نصال المناجل الطويلة هي نماذج لهذه الصناعة، كما وكانت المثاقب شائعة بشكل خاص، أما المكاشط؛ فقد بقيت نادرة. كانت الصناعة هي الصناعة الطاحونية،

1- د. حتّي، تاريخ...، مرجع سبق ذكره، ص 16.

2- جـ. هاوكس ول. وولى، أضواء...، مرجع سبق ذكره، ص (34-35).

وكان الصوّان المتوفّر في فلسطين والأردن هو المادة الرئيسية لهذه الصناعات. ومع ذلك كان حجر الزجاج البركاني ما يزال موجوداً في فلسطين في أريحا.

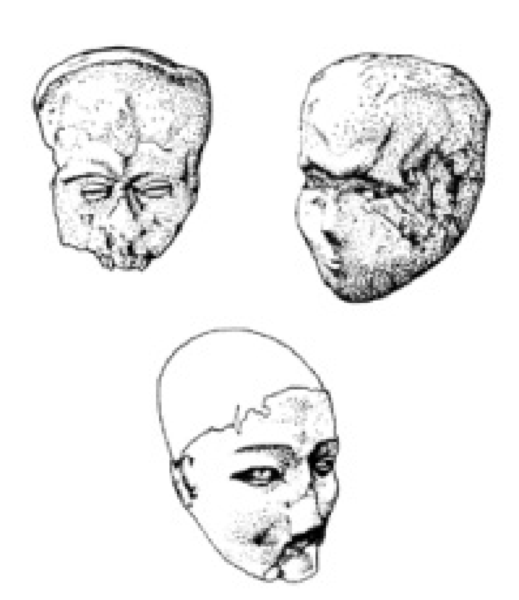
الظاهرة الجديدة هنا هي الجاروشة اليدوية البيضوية المفتوحة بشكل ضيق من أحد جوانبها، وكذلك ظهور الآنية والأطباق المصنوعة من الكلس؛ لأن الفخار لم يكن معروفاً في ذلك الوقت. أما السلال التي عولجت بالكلس والقار لجعلها كتيمة، وكذلك الجلود؛ فقد كانت مستعملة، لكنها لم تترك أيّ أثر يُذكَر. ولقد أمكن التأكد من وجود صناعة الحصر في أريحا، لكن المدهش حقاً هنا أن هؤلاء الناس قد صنعوا حصراً مستديرة، استعملوها في غرف مستطيلة. إن هذا الأمر يمثّل بقية من التراث القديم؛ حيث كانت البيوت دائرية الشكل. [1]

هذا يدلّ على ظهور جماعات متخصّصة، تميزت اقتصادياً واجتماعياً عن بقية أفراد المجتمع. وهذا يشير إلى اختلاف في المستوى المادي للناس، وظهور تجمّعات من الحرفيين والفنيين.

البيئة الدينية

إن عادة وضع الجماجم بشكل منفصل ليست جديدة، بل هي معروفة منذ عصر النيوليت ما قبل الفخار (أ) وحتّى منذ العصر الناطوفي. ولكن التجديد الرئيسي كان اقترانها، المقصود وذا الدلالة، مع الأبنية التي وُجدت بداخلها، من جهة، ومن جهة ثانية، تحضيرها الخاص؛ إذ تم تقوية هذه الجماجم بالطين المضغوط، كما أُعيد تكوين وجه الميت باستخدام مادة طينية ــ كلسية وقد مثّلت العيون بالصدف الذي وضع بشكل يظهر الشقّ، الذي كسى الوجه، والذي بقيت آثاره واضحة، وكان لونه مثل لون جلد الإنسان هدف، حسب كينيون، إلى تأكيد التشابة بين الجمجمة وصاحبها الحقيقي.

1- ميلارت، أقدم...، مرجع سبق ذكره، ص (51-52).



جماجم مليسة من أريحا عصر ما قبل الفخار
(جاك كوفان، ديانات العصر الحجري الحديث في بلاد الشام).

لقد وُجدت هذه الجماجم المقلوبة عموماً، على شكل مجموعات، واحدة ضمّت سبع جماجم، ومجموعتان أخريتان وُجدتا في غرفة مجاورة لنفس البيت الذي وُجدت فيه المجموعة الأولى. ولا يدلّ وضع هذه الجماجم على عملية دفن ثنائي وجزئي، كما هو الحال في العصر الناطوفي، وإنما كانت تمثل أثاثاً جنائزياً ظاهراً، لم يطمر إلا عندما أُعيد ترميم بيوت السكن فيما بعد.

لقد وُجدت في داخل البيوت، تحت الأرضيات المليسة، قبور بكل معنى الكلمة، تجمّعت فيها الجثث بأعداد كبيرة، وصل عددها الأربعين في إحدى الحالات، وكانت الجثث إما كاملة، أو بلا رؤوس، وأحياناً شديدة البعثرة، ومع ذلك، فقد بقيت بعض العظام متصلة مع بعضها، كما في عين الملاحة. وقد استنتجت كينيون، وبحقّ، أن الجماجم، قد نزعت بفضل قدرة عالية على التحليم (تقطيع الجثة)، إضافة إلى عناية فائقة، حافظت على أوتار الفضلات بما يضمن بقاء أجزاء مرتبطة مع بعضها، لقد

عثرت كينيون على الجماجم المقوْلبة في بيتين فقط، أحد هذه البيوت أعطى، كما رأينا، تسعة جماجم، وفي البيت الآخر، في الطرف الثاني من التل، وُجدت جمجمة واحدة. ولكن صغر مساحة التنقيبات لا يسمح لنا بتقدير العدد الحقيقي لمثل هذه الجماجم.

ويكاد أن يبدو بأن الحالة العامة هي وجود القبور تحت أرضيات السكن، ولكن، عُثر على اثني عشر هيكلاً مدفوناً من عصر النيوليت ما قبل الفخار (ب)، في الدرج الداخلي للبرج العائد إلى عصر النيوليت ما قبل الفخار (أ)، والذي كان مطموراً، حتّى ثلاثة أرباعه، بعد أن بطل استخدامه، وليس هناك ما يدل على أن البيوت نفسها كانت مستعملة عندما دفنت الهياكل فيها، كما لا يدل هذا على إعادة استخدام المناطق المهجورة سابقاً لأغراض دينية. [1]

من ناحية أخرى، ترك إنسان تلك المرحلة، إلى بعض الخصائص المميزة، والفريدة من نوعها في الشرق الأدنى القديم، ففيما يتعلّق بعقيدة استمرار الحياة في العالم الآخر، يلاحظ المؤرّخ ظاهرة فصل رأس المتوفى عن جسده، ووضع كسوة جصية فوق رأس المتوفى، حتّى تظل صورته مناظرة لما كان أثناء حياته. وقد عُثر على بعض أمثلة لتلك الظاهرة، كما وُجدت بعض الخطوط ذات اللون فوق رأس المتوفى المَكسوّة بالجصّ، ربّما تكون كرداء للرأس. وتتّجه كول (Cole) إلى اعتبار فصل رأس المتوفى عن الجسد، ودفنها بصورة مستقلة، ربّما يتصل بعقيدة عبادة الجمجمة. وممّا يسترعى الانتباه وجود وجه شبه بين ذلك التقليد من حيث كسوة رأس المتوفى بالجص، وما لا يزال متبعاً جزئياً حتّى الوقت الحاضر في ميلانيزيا. [2]

1- كوفان، ديانات...، مرجع سبق ذكره، ص (52-54).

2- د. الناضوري: المدخل في التطور التاريخي للفكر الديني، مرجع سبق ذكره، ص 37.

يقول إلياد، إن هذا يتعلق، بالتأكيد، بطقس عبادة الجماجم. غير أنه سيُقال أيضاً بأن ذلك محاولة للحفاظ على ذكرى الفرد حياً. [1]

أو كما قال سيتون ليود، أنها توحي بممارسة نوع من العقيدة، تتعلق بإحياء ذكرى بعض الأشخاص. [2]

انتشرت القرى الزراعية العائدة لهذه المرحلة، ومع انتهاء مرحلة النيوليت ما قبل الفخار، والتي عُرفت باسم الحضارة الطاحونية، فقد كان الموقع النموذج لها هو أبو غوش، بالقرب من القدس.

أبو غوش:

يقع موقع أبو غوش فوق جبال القدس، على بُعد 15 كم جنوب ــ غرب القدس، وتبلغ مساحة الموقع حوالي 2000 م 2، على ارتفاع 700 م فوق مستوى البحر. اكتشف الموقع عام 1929من قِبَل رينيه نوفيل؛ حيث قام بحفر بعض الحُفر التجريبية فيه، ثمّ أُعيد فتح حُفر تجريبية عام 1952 من قِبَل جان بيرو، وأُجريت تنقيبات أثرية على مساحة 340م 2 في الموقع في الفترة الواقعة بين (1967-1971) من قِبَل جنفيف دولفوس ومونيك لوشوفاليه. وقد أسفرت التنقيبات الأثرية عن الكشف عن أربع وحدات سكنية مستطيلة الشكل، جدرانها مَبنية من الحجارة غير المشذّبة، وأرضياتها مَطلية بالجص، ومدهونة باللون الأحمر. تبلغ أبعاد أفضل المساكن حفظاً 8×8 م، ذو أرضية مَطلية بالجص، ومدهونة باللون الأحمر، فوق رصفه من الحجارة، تم تجديدها أكثر من مرة، وتتراوح سماكة الجدران بين 50 و110 سم، والجدران مَبنية بوجهين من الحجارة، وفيما بينهما حشوه من الحجارة الصغيرة. احتوت الأرضية على موقد.

1- إلياد، تاريخ المعتقدات...، مرجع سبق ذكره، ص 64.
2- سيتون ليود، آثار بلاد الرافدين من العصر الحجري القديم حتّى الغزو الفارسي، ترجمة: محمد طلب، ط 1، دمشق، دار دمشق، ص 38.

كشفت تنقيبات بيرو ودولفوس وشوفاليه عن بقايا لحوالي30 هيكلاً بشرياً، دُفنت غالباً بشكل فردي، باستثناء حالة واحدة. سُجيت الهياكل غالباً على جانبها الأيسر، وبوضعية الثني غالباً، وكانت غالبيتها منزوعة الرأس للبالغين، ويلاحظ أن الجمجمة تمثّلت في معظم الهياكل غير المكتملة بالفكّ السفلي فقط. كما زُوّدت الهياكل بالمرفقات الجنائزية التي تمثّلت بالأدوات الصوّانية والمدقّات والأجران الحجرية.

كما عُثر على مجموعة من الجماجم المجصصة مدفونة في مدافن خاصة، ومترافقة مع بعض المرفقات الجنائزية. تمثّلت الأدوات الصوّانية المكتشفة في الموقع بالمناجل، ورؤوس السهام والمناقيش، بالإضافة لوجود بعض قطع الأوبسيديان.

وعثُر كذلك على أدوات حجرية ثقيلة كالأحواض والأجران والمدقّات، وأدوات عظمية، وأدوات زينة، وتماثيل حيوانية من الطين غير المشوي. أُرّخ الموقع إلى العصر الحجري الحديث قبل الفخاري (ب). [1]

وأدّت زراعة النباتات إلى ممارسة الغزل والحياكة، وكانت هذه الأعمال كلها في البداية مقتصرة على ألياف النباتات، وخصوصاً الكتّان. وبالرغم من أن الغزل عملية سهلة، فإن النسيج أو الحياكة تحتاج إلى نول، وصنع النول كان أحد الاختراعات الكبرى في مرحلة العصر الحجري الحديث.

وقد وُجدت في بقايا قرى العصر الحجري الحديث في جنوب غرب آسيا (فلسطين)، البشائر الأولى التي تدل على ظهور صناعة النسيج، وبدأت الملابس المنسوجة من غزل التيل أو الصوف ـ فيما بعد ـ تنافس قطع الجلد أو أوراق الشجر في حماية الإنسان من البرد ووهج الشمس. [2]

1- مجلة مهد الحضارات (دمشق)، د. خالد أبو غنيمة، الاستيطان البشري في فلسطين والقدس خلال عصور ما قبل التاريخ، عدد خاص بالقدس، الندوة الدولية القدس في التاريخ، وزارة الثقافة ــ المديرية العامة للآثار والمتاحف، سوريا، (2009-2010)، ص 23.

2- تشايلد، تقدم الإنسانية، مرجع سبق ذكره، ص 84.

يقول أولبرايت، ولما كانت أوربا لم تزل في العصر الحجري المتوسط خلال معظم فترة ما قبل الفخار في أريحا، فإننا لابد وأن نسلّم بأن أوربا كانت متأخّرة كثيراً جداً عن فلسطين في ذلك الحين. [1]

يشير برونوفسكي، إلى التكنولوجيا في أريحا بالقول: تبدو الزراعة ورعاية الحيوان حرفة بسيطة، ولكن منجل عشيرة الناطوف يعتبر إشارة تبيّن أن هذه العشيرة لم تتوقّف عنده. فكل من مراحل استئناس النبات والحيوان تحتاج إلى ابتكارات، ابتكارات تبتدئ في شكل أدوات تقنية، ومنها تنبثق المبادئ العلمية. والأدوات الأساسية لعقل الإنسان ذي الأصابع الذكية موجودة أمامه غير ملحوظة في كل قرية بأي مكان بالعالم. والحق أن هذه الوفرة من الأدوات الصغيرة الدقيقة فيها من الإبداع والأهمية في ارتقاء الإنسان مثل ما في أي من أجهزة الفيزيقا النووية: الإبرة، المخرز، القدر، المجمرة، الرفش، المسمار والمسمار اللولبي، الكير، الخيط، الأنشوطة، النول السرج، الخطاف، الزر، الحذاء ــ وغيرها مئات ممّا يمكن ذكره قبل أن يلتقط الشخص أنفاسه. ويتبع هذا الثراء من تفاعل الابتكارات: أن الحضارة تضاعف الأفكار، فكل أداة جديدة تسرع وتزيد من قوة غيرها.[2]

انطلاقاً من كل هذا، وتخريجاً عليه، يكون قد ظهر في أريحا (أول مجتمع قروي)، فقد كانت أريحا خلال العصر الحجري الحديث قبل الفخاري مسوّرة، وبها معابد، وهي أول موقع في العالم يتمتع بهذين المرفقين العاميين، ولذلك يحق وصف أريحا بأنها أقدم مدينة في العالم، وأن سكانها أول مجتمع متمدّن، ذلك أن وجود السور يشير إلى وجود سلطة سياسية وعسكرية، كما أن وجود المعبد يدل على وجود ديانة منظمة ذات كهنوت وطقوس.

1- أولبرايت، آثار فلسطين، مرجع سبق ذكره، ص 64.

2- برونوفسكى، ارتقاء الإنسان، مرجع سبق ذكره، ص (43-44).

على ذلك، فإن كل الشواهد تشير إلى أن أرض فلسطين هي البقعة التي تحوّل فيها الإنسان من جمع الطعام إلى إنتاجه، ثمّ تخزينه. ومن اليسير أن ندلّل على أن الفلسطينيين هم أول مَن اتخذوا هذه الخطوة الثورية، وبذلك أرسوا دعائم المدنية، وليس هذا فحسب، بل إنه لا يقلّ عن ذلك احتمالاً أنهم ابتكروا الكثير من الفنون والحِرَف الأساسية، وعلى الأقل، كانوا أول شعب عرفناه، مارس تلك الفنون والحِرَف.

لقد فعل الفلسطينيون أكثر بكثير من مجرد ابتكار الزراعة، وابتداع الديانات، وفنون الحكم، فلم يقتصر عملهم على التفنّن في الصناعات الخشبية، والحجرية، وفن البناء، بل امتد إلى معرفة الأصول الحسابية، والإلمام وأصول الجغرافية، واشتراع القوانين التي كانت تنظم الملكية، والعلاقات التجارية، والروابط الاجتماعية.

يسوقنا هذا إلى نقطة بالغة الأهمية، في نظرية ارتقاء الحضارة، وانتشارها، فقد اتضح أن مجتمعاً واحداً من المجتمعات القديمة لم تبلغ ما بلغته فلسطين في تملكها ناحية الحضارة. أفلا يكفى هذا دليلاً يلقي ضوءاً على موضوع المكان الذي نشأت فيه الحضارة.

من النادر أن يأخذ مجتمع من المجتمعات العديد من عناصر الحضارة عن مجتمع آخر، ثمّ لا يستطيع أن يباري أستاذه، أو يسبقه في ذلك الميدان. فإذا جاءت فلسطين، وظلت من عصر إلى عصر فارس الحلبة في حضارتها، ولم يرتفع إلى مستواها أحد، أفلا يكون هذا التفوق شاهداً على أن الفلسطينيين هم أصحاب الابتكار؟ ألا يبيّن هذا أن الفلسطينيين، لابد، وأن يكونوا مبتدعي العديد من عناصر الحضارة التي نبغوا فيها، وملكوا زمامها؟ إذا كان الأمر غير ذلك، فإن حالة فلسطين تكون حالة شذت شذوذاً عجيباً عن قاعدة يسير عليها العالم في كل العصور. والتفسير الطبيعي لهذا، هو أن الفلسطينيين كانوا أول مَن ابتكر العديد من عناصر الحضارة، في وقت كانت المجتمعات الأخرى مفتقرة إلى الكثير منها.

الفصل السادس

الحضارة اليرموكية وأخواتها

تلت فترة ما قبل الفخار في العصر الحجري الحديث في فلسطين، فترة استخدام الفخار التابعة لنفس العصر، وتمثّلها أحسن تمثيل الطبقة التاسعة في أريحا، وخصوصاً في التنقيبات التي أجراها ستكليس في وادي اليرموك؛ حيث عُثر على بقايا هامة جداً من حضارة شعار هاجولان اليرموكية [على سفح وغرب مرتفعات الجولان المحتلة على الطرف الجنوبي لبحيرة طبرية] التي يرجع تاريخها إلى أواسط الألف الخامسة.(1)

في وقت ما كان يظن أن الفخار أحد المعايير الأساسية لحضارة العصر الحجري الحديث، ولكن الاكتشافات المتأخرة قد بيّنت أن الفخار ربّما سبق في بعض الأحيان الزراعة وتدجين الحيوان من حيث الزمن، فعلى سبيل المثال في مجتمعات إنتاج القوت في الشرق الأوسط وُجد في الطبقات السفلى في أريحا. (2) يظهر الخزف في فلسطين في إحدى الطبقات الدنيا في أريحا، ويعتقد غارستانغ أنه اخترع هناك. (3)

والفخار في بادئ الأمر كان ليّناً نوعاً ما، وكان لونه بُنّيّاً محلّى في بعض الأحيان بخطوط وردية. وفي نفس الوقت، بدأ السكان في تخزين الحبوب في حفر، حُددت

1- أولبرايت، آثار فلسطين، مرجع سبق ذكره، ص 67.
2- سونياكول، ثورة...، مرجع سبق ذكره، ص 34.
3- د. حتّى، تاريخ...، مرجع سبق ذكره، ص 21.

بالطوب اللبن. وقد عُثر على نموذج من المباني مكوّن من طابقين، يُعتقد أنه كان مخزناً للغلال أو مخبأ، وهذا المبنى يعطي فكرة عامة عن الفن المعماري المعاصر. وعلى أي حال فالشيء الحقيقي المميّز لهذه المحلة المعروفة لدى الأركولوجيين باسم أريحا 9 هو أنها كانت «سبيل «أو فندق محلّى. [1]



أدوات صوانية وفخارية تمثل صناعة اليرموكية من موقع الأقحوانة (شعار هاجولان) بفلسطين وتعود لفترة العصر الحجري الحديث المتأخر الأول
(معاوية إبراهيم الموسوعة الفلسطينية)

1- جـ. هاوكس ول. وولى، أضواء...، مرجع سبق ذكره، ص 36.

ظهرت في فلسطين ثلاث حضارات فخارية، هي: اليرموكية والساحلية (وخصوصاً في وادي رباح بالقرب من رأس العين)، والمنحطة (غور بيسان). وفي هذه المرحلة حدثت تغيّرات متعددة، أكثرها وضوحاً كان في مجال الأواني الفخارية من حيث الاتفاق والألوان والزخارف، فضلاً عن تنوّع الأشكال. كما استُبدلت البيوت المستديرة بأُخرى مستطيلة، مؤلفة من غرفتين أو ثلاث. وبينما كانت الطاحونية تنحصر في الجنوب والصحراء، دخلت كما يبدو شعوب أُخرى من الشمال والشرق، حملت معها إلى فلسطين صناعة الفخار. [1] فقد وُجدت آثار تلك المرحلة في تليلة باتاشي ووادي رباح وكفر جلعادي وتل طور موسى قرب منابع نهر الأردن وتل زريق وتل كبرى في سهل مرج بني عامر، وفي مواقع عند ملتقى اليرموك بنهر الأردن. [2]

يقول ميلارت، في الأماكن التي ظهرت فيها بقايا الأبنية إلى الضوء كانت المخططات المستطيلة هي الأساس باستثناء أريحا التي تميزت فيها الأبنية بالنموذج الدائري للأكواخ المبنية تحت الأرض. إن أبنية عصر أريحا الحجري الحديث الفخاري تظهر دلائل واضحة عن كونها تنتمي إلى مرحلة أحدث عندما شاعت مثل تلك الأساليب البدائية في العيش. [3]

منذ الألف الخامس ق.م، تطوّرت من لبنان وحتّى الأردن، حضارة واحدة، تميزت هذه الحضارة، في مجال الفخار، بصنع أوانٍ، تقنياتها أكثر تعقيداً، دُهنت بألوان مختلفة، وزُخرفت بالدمغ. وإلى هذا العصر يعود «اليرموكي» في فلسطين الداخلية (شعار هاجولان، منهاتا 2 [المنحطة 2]، النيوليت الفخاري من أريحا...) و«النيوليت الساحلي» (بجوار المناطق الساحلية، وتل الرماد) غير المؤرّخ بشكل جيد حتّى الآن.

1- شوفاني، الموجز في...، مرجع سبق ذكره، ص 37.
2- د. الدباغ، الوطن العربي...، مرجع سبق ذكره، ص (88-89).
3- ميلارت، أقدم...، مرجع سبق ذكره، ص (75-76).

إن نمط الحياة خلال هذه المرحلة تنوّع بشكل كبير من موقع إلى آخر. لقد عرفت مبادئ الزراعة والتدجين في كل مكان، ولكن تطبيق هذه المبادئ لم يكن دائماً واحداً. وقد كان النشاط الاقتصادي متخصّصاً وفق معطيات البيئة المتميزة، والحِرَف، التي بلغت انتشاراً كاملاً، وارتبطت بتوفّر المواد المحلية.

ويظهر أن كل الناس قد مارسوا الزراعة، ولكن سكان هاغوشيرم في فلسطين [شرق بحيرة الحولة في حوض نهر الأردن] قد دجّنوا الثور، بينما لم يعرف سكان منهاتا 2[المنحطة 2] إلا الحيوانات الصغيرة، كما أن الصيد احتل في منهاتا [المنحطة] مكانة هي أهم من مكانته في مناطق أخرى. [1]

البقايا الجنائزية

تـم التنقيـب عـن عيّنـة صغيـرة فقـط مـن البقايـا الجنائزيـة فـي فلسـطين. وقـد عُثـر علـى هـذه البقايـا فـي عـدد محـدود مـن المواقـع الأثريـة مثـل خربـة القحوانـة ويافـا وتـل القاضـي وتـل أبـو زريـق وعيـن الجربـا وعيـن غـزال ووادي شـعيب. وبعـض هـذه البقايـا المتفرقـة وُجـدت فـي سـياقات تراكميـة. والصـورة غائمـة نسـبياً، وهنـاك فرضيتـان لتفسـير غيـاب البقايـا الجنائزيـة فـي هـذه الفتـرة. الأولـى أن ثمـة تغييـراً قـد طـرأ علـى ممارسـات الدفـن؛ بحيـث لا يسـمح بحفـظ طويـل للبقايـا العظميـة، والثانـي وجـود مدافـن خـارج حـدود المسـتوطنات البشرية يصعب تحديد أماكنها. [2]

1- كوفان، ديانات...، مرجع سبق ذكره، ص (82-83).

2- الكرمل (رام الله)، حمدان طه، البقايا الجنائزية والتمايزات الاجتماعية في فلسطين،، العدد 63، ربيع 2000، ص 201.

يقـول كوفـان، إن القاعـدة العامـة هي القبـور الفرديـة للجثة في وضعيـة مُثنية، وغالبـاً مـا ترافقهـا أوانـي تضحية. وقـد توقّف اسـتخدام القبـور الجماعيـة، وتوقف أيضاً الدفن الثنائي.[1]

التماثيل

إن التماثيل، الحجرية أو الطينية، تبقى مصدر معلوماتنا حول تمثيل الآلهة في هذا العصر. وقد أعطت شعار هاجولان ومنهاتا [المنحطة] كمية كبيرة منها. وتتألف التماثيل من أشكال مختزلة منفَّذة على حصى حجرية. وهو ممثّل بخاصة في النيوليت القديم، ولكنه استمر حتّى النيوليت الأوسط (تمثالان).

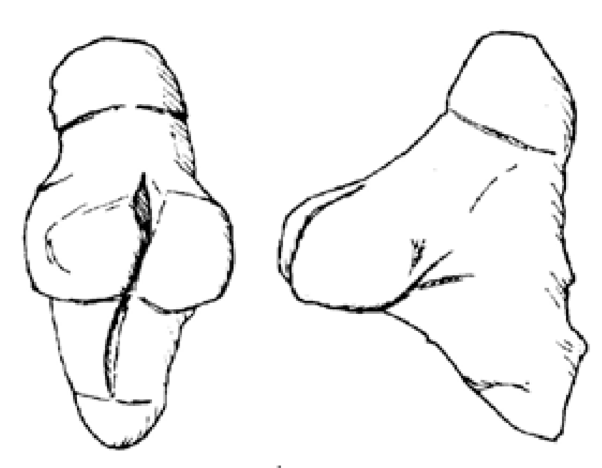
إن تقنية هذه التماثيل تقوم على اختيار حصى ذات شكل مناسب لتنفّذ عليها بواسطة الحز أشكال شبة إنسانية، لكنها معبِّرة. هذه الحصى هي، دائماً تقريباً، متطاولة، شكلهما عموماً بيضوي، ومقطعهما مسطّح، أو أسطوانية الشكل بالكامل. ويعتبر كوفان، «أن الحزوز العميقة في شعار هاجولان بداية فن النحت». يمكن أن نحاول تصنيف تماثيل هذا العصر كالتالي:

النموذج الأول، يضم التماثيل النسائية، ويعتمد هذا النموذج على إظهار الورك على حساب بقية الجسم. وتعتبر تماثيله أكثر اكتمالاً من الناحية التشكلية؛ لأن الحُفر فيها عمق، يُظهر الشكل المنحوت، في الحجر الكلسي الطري، واضحاً.

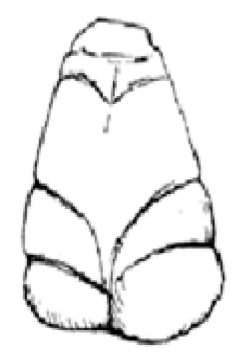
إن التمثال الذي أتى من **شعار هاجولان** (نموذج 1a) هو شديد التعبير من هذه الناحية؛ حيث يشكّل الورك والأفخاد ثلاثة أرباع التمثال العام، كما أن الساق والقسم الأعلى من الجسم مفصولان عن البقية، بواسطة ثلم محفور، ومختصران إلى أجزاء

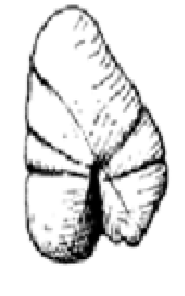
1- كوفان، ديانات...، مرجع سبق ذكره، ص 113.

بسيطة، وغالباً (نموذج 1b) ما يكون التمثال مثلّث الشكل بما يوحي بوضعية الجلوس، وعليه حفر متوسط على القاعدة، يفصل بين الأفخاذ، وخطآن مائلان متقاربان، يحدّدان الحالب من جهتيه، ويمثّل هذا النموذج قطعتان من شارهاغولان وتمثالان آخران وجدهما تسوريفي منهاتا [المنحطة] في وادي بيسان.



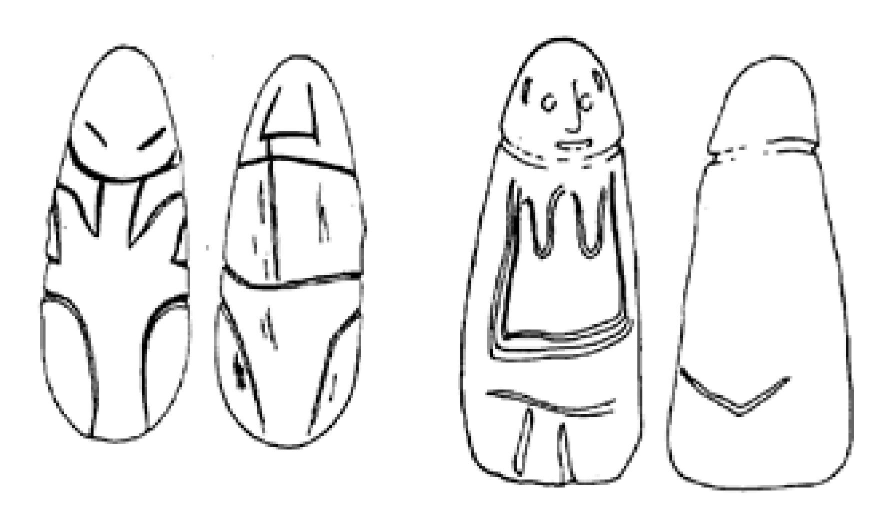
نموذج 1a
تماثيل نسائية على الحصى من موقع شعار هاجولان





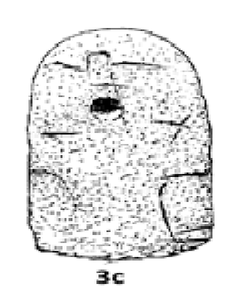
نموذج 1b
تماثيل نسائية على الحصى من موقع شعار هاجولان

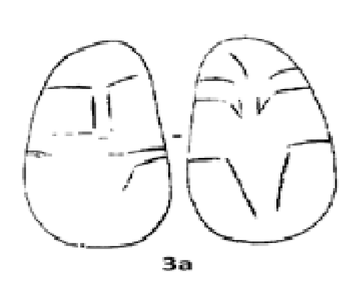
النمـوذج الثانـي، وقـد تميّـز ببقـاء الشـكل الأولـى للحصـى دون نحـت تقريبـاً. ومـع ذلـك، فـإن هـذا النمـوذج هـو الأكثـر مـن الناحيـة التشـريحية، وإليـه يعـود تمثـالان، لهمـا شـكل أسـطواني وُجـدا فـي موقـع شـعار هاجـولان، أو فـي محيطـه، ويحمـلان نحتـاً، يُظهـر الحوالـب، ويفصـل بيـن البطـن وبيـن القسـم الأدنـى مـن الجسـم، كمـا يُظهـر الصـدر والأذرع والوجـه، ويفصـل بيـن الـرأس وبقيـة الجسـم بثلـم طويـل. وجديـر بالذِّكْـر بـأن إبـراز النهديـن لا يـدع أيّ مجـال للشك حول أنثوية هذه الأشكال.



النموذج الثاني
تماثيل نسائية على الحصى من موقع شعار هاجولان

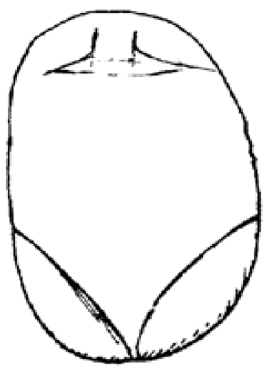
النموذج الثالث، وهو أكثر اختصاراً، ويضم عدة تماثيل، نُفّذت على الحصى المسطّحة (3a, 3b) أو الأسطوانية (3c)، وقد نُحت فيه بشكل خاص الوجه، بينما اقتصر نحت بقية الجسم، إمّا على ثلم مزدوج، أظهر الحوالب (3a)، أو على خط واضح، فصل بين الرأس والجسم (3b)، ولكن، لم يشر إلى النهود إطلاقاً.





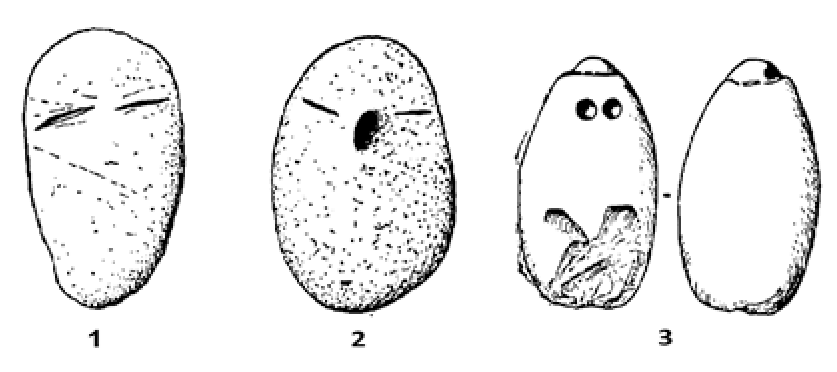
النموذج الثالث (3a, 3c)
تماثيل نسائية على الحصى من موقع شعار هاجولان

إن أثلام الحواجب (3a) لم تظهر إلا على نموذج واحد، نشره بيرو من **منهاتا [المنحطة]**، وعلى عدة قطع من **شعار هاجولان**، بينهما شكل أسطواني، يصنف على النموذج (3c).



النموذج الثالث (3b)
تماثيل نسائية على الحصى من موقع منهاتا [المنحطة]

النموذج الرابع، وهو لا يحمل إلا إشارات للوجه، تقتصر على خطين أو نقطتين، تدلان على العيون، وتقعُّر صغير يشير إلى الفم، أو، أحياناً، إلى العيون فقط. ويمكن أن نميّز بين تماثيل هذا النموذجين نوعين: الأول (النموذج 4a) نُفِّذ على حصى عادية مسطّحة، والنوع الثاني (النموذج 4b) نُفّذ على حصى أسطوانية ومتطاولة، وُجدت في **شعار هاجولان**.



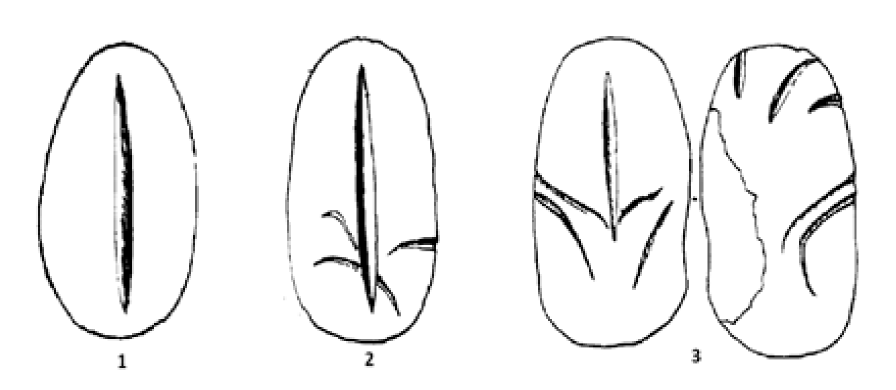
النموذج الرابع (4b)
تماثيل إنسانية على الحصى من موقع شعار هاجولان

وقد فُسِّرت أشكال النوع الثاني المتطاولة أنها تمثّل الأعضاء الذكورية، ممّا يدل على أنها تعود لرجال. ولكننا لاحظنا أن التمثالين العائدين للنموذج الثاني واللذين تشير النهود بشكل قاطع إلى شكلهما الأنثوي، لهما أيضاً شكل عام متطاول، ممّا قد يوحى بصفات، العضو الذَّكَري، ولكن، دون أن تكون هناك أية صفات ذَكَرية إيحائية واضحة.

النموذج الخامس، ويظهر الطابع الإنساني، بشكل خفي، غير الممثَّل، فعلاً، في شعار هاجولان إلا من خلال قطعة واحدة اعتُبرت من قِبَل ستكليس «رمزاً ذَكَرياً». إن الشكل العام لهذه القطعة هو نفسه النموذج (4b) ولكن الصفة الذَّكَرية الإنسانية تظهر في الشكل المخروطي لنهايتها. وقد وُجدت قطع مشابهة، في منهاتا [المنحطة]، بعضها من الطين.

النموذج السادس، وهو يقدم لنا أشكالاً، يحتمل جداً أن تكون نسائية، وُجدت كلها في شعار هاجولان، وهي حصى، يميّزها شقّ، يتوسّطها، عميق جداً، وله نهايات واضحة، يرى فيه ستكليس تجسيداً للفرج، ويمكن أن يكون هذا التفسير حقيقياً. وفي الشكل رَقْم (3)، المكسور من جانبه، للأسف، ظهرت الصفات، شبة الإنسانية، بل

والأنثوية، من خلال إظهار الشقّ المزدوج للحوالب، كما أن الشقوق تمتدّ أيضاً على ظهر التمثال. ويُظهر تمثيل الحوالب بشكل خفي على الصورة رَقْم (2)، ولكنه يغيب في الصورة رَقْم (1) التي وُجد الكثير منها في شارهاغولان. إن تمثيل الفرج، إذا كان صحيحاً، فمن الواضح أنه لم يحصل في مكانه التشريحي الواقعي، وإنما في منتصف القطعة المنحوتة بشكل ظهرت الدلالة الرمزية أكثر قوة.



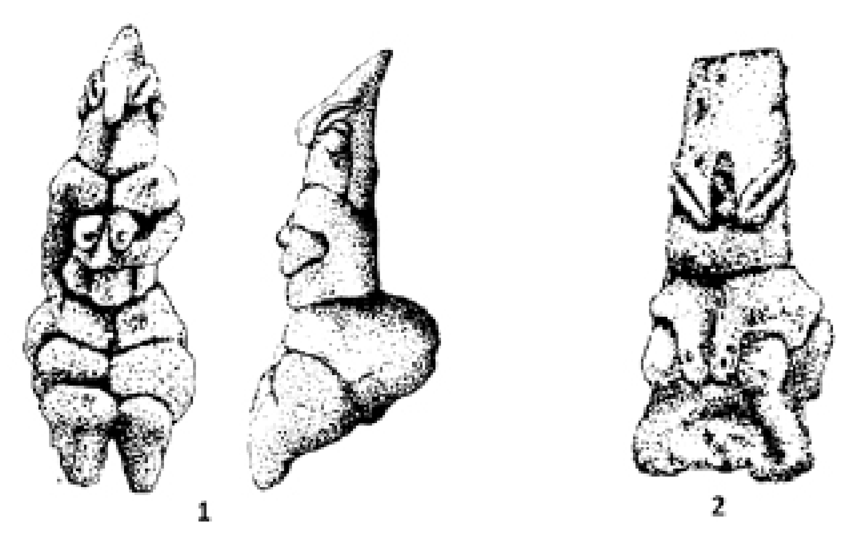
النموذج السادس
تماثيل على الحصى فيها شق مركزي من موقع شعار هاجولان

بين كل التماثيل التي عرضناها، فإن النموذجين (1 و6) هما اللذان يمثّلان الأشكال النسائية، وربّما كانت التماثيل الأخرى كذلك، مع أنها لا تحمل صفات جنسية واضحة. وإذا أخذنا بعين الاعتبار الصفات الشديدة الاختزال لهذا الفن، والإشارات البسيطة التي، وحدها، غير كاملة الدلالة، كتمثيل الحوالب أو العيون، ولكنها وُجدت في أماكن أخرى في إطار أكمل، فإن ذلك يجب أن يكون كافياً لاعتبارها تمثّل نفس الحقيقة الواحدة والمقدّسة. كما أن التطاول الخاص لبعض الأشكال لا يكفي، كما رأينا، لإلغاء صفاتها الأنثوية، ولكن، ربّما كانت خلف هذه الصفة فكرة أخرى. [1]

1- كوفان، ديانات...، مرجع سبق ذكره، ص (89-99).

تماثيل طينية من فلسطين: «الأمّ الرهيبة»

إن التماثيل الفلسطينية، تؤرّخ على حوالي 4500سنة قبل الميلاد، وهي تقدّم نموذجاً مكتملاً ومعبّراً. فقد أعطت السوية الثانية من منهاتا [المنحطة] العديد من التماثيل من الطين المشوي، وهي في معظمها تماثيل نسائية حسب بيرو، وهناك تماثيل أخرى أتت من شعار هاجولان، إضافة إلى تمثال وجده كابلان في تل أبيب. إن الطابع الخاص جداً لهذه التماثيل يختلف جداً عن تماثيل السويات 6 ــ 3 في منهاتا [المنحطة]، وهو بعيد جداً عن الواقعية؛ لأنه عمد إلى مبالغة تشكيلية، فقد تألّف الجسم من أجزاء، أُلصقت مع بعضها عبر كرات طينية مقولبة، وحصل تشويه مقصود لبعض الصفات وخاصة الوجه. لقد مثّلت النساء بدينة واقفة أو جالسة، ووصل طولها في منهاتا [المنحطة] حتّى ثلاثين سنتيمتراً.



تماثيل الأمّ الرهيبة من الطين من موقع منهاتا [المنحطة].

وقد أبرز البطن والنهود بخاصة، وكانت الأذرع مَثنية، وترفع النهود أحياناً، وقد عومل الوجه وبشكل مقصود؛ ليظهر مرعباً بأنفه الضخم وأذنه التي على شكل كرات

دائرية ملقة من الجهتين، وعيونه المشكّلة من كرات مائلة ومحزوزة طولانياً وفق الطريقة المسماة «عين الحية». الشكل العام للرأس مثلث، نهايته متطاولة بشكل قوي نحو الأعلى وإلى الخلف، الفم مشاراً إليه عبر كرة أفقية، في شارهاغولان أو بواسطة حز بسيط، في تل أبيب، بينما الفم على الرأس في منهاتا [المنحطة]، وهناك حزوز على تمثال تل أبيب تبدو، للوهلة الأولى، أنها تشير إلى الشوارب واللحية، ولكن، من الأرجح أن هذه الحزوز كانت تهدف إلى اظهار تقاسيم مختلف أجزاء الوجه.



تمثال الأم الرهيبة من الطين من موقع تل أبيب

إن هذا التصميم المسبق، على المبالغة وتحوير الصفات الإنسانية حسب نظام محدد، ومتفق عليه، ومتطلع نحو تعبير غريب، يؤكد على الصفة الساحرة لهذه التماثيل، ويبرز، بشكل كاف، طابعها الشيطاني. وعليه فإن تسمية الأمّ الرهيبة (Mere terrible) المأخوذة من مفردات التحليل النفسي هي مناسبة تماماً.

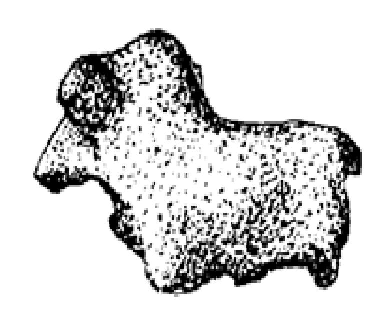
إن المقارنة بين التماثيل الطينية والتماثيل المنفذة على الحصى تعطي تشابهاً واقعياً، رغم الاختلاف في المادة وفي الأسلوب، فإن الإشارة للعيون، في التماثيل الحجرية، عبر حزوز طويلة وغالباً مائلة، من الممكن أن تذكّر بعين الأفعى، في التماثيل الطينية. كا أن الإشارة المتكررة لمنطقة الحالب بخطين واحد يشير إلى الفخذ، وآخر إلى أسفل البطن في التماثيل الحجرية يمكن أن تذكّر بطريقة تقسيم الجسم، عبر كرات، في التماثيل الطينية. إن الشكل المثلث عموماً، لبعض التماثيل، على الحصى، من النموذج الأول، يذكّر بشكل واضح بـ«الربّة الجالسة».

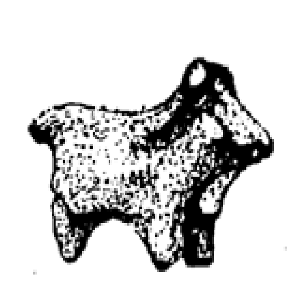
وأخيراً فإن تطاول نهاية الجمجمة في تمثال منهاتا [المنحطة]، الذي لم يخطر على بال أحد أن يعطيه تفسير «القضيب» يشبه النهايات المخروطية المقصودة في بعض الحصى البيضوية أو المتطاولة. [1]

تمثيل الحيوانات

لقد استمر تمثيل الحيوانات في عصر النيوليت الفخاري، ويبدو أن هذه التماثيل، بقدر ما تسمح التقارير المنشورة بالحكم، فقد كان لها أهمية ثانوية قياساً إلى التطور الكبير للتماثيل ذات الشكل الإنساني المعاصرة لها.

وقد نشر بيرو من منهاتا 2 [المنحطة 2] تمثالاً من الطين النيء أتى من الجزء الأسفل للسوية (2B) يدل الحنك على أنه بقرة. إن تماثيل هذه السوية هي في أغلب الأحيان من الطين النيء، ويمثّل بعضها، حسب بيرو، ثيراناً لها حدبة. إن تمثيل هذا النوع، المسمّى أيضاً درباني يبدو شاذاً، في فلسطين في ذلك العصر البعيد. من إشارة لجنسه يظهر أنه ثور، ومن المحتمل أن تكون الحدبة ليست إلا مبالغة، كما في الطابع التعبيري لمنهاتا 2 [المنحطة 2]، في سفاد غارب هذا الحيوان (رقبة مليئة بالدم). إن هذه المبالغة في الصفات الأنثوية في تماثيل الآلهة الطينية. ونذكر أخيراً، بين التماثيل الحيوانية، رأساً حيوانياً من الحجر.

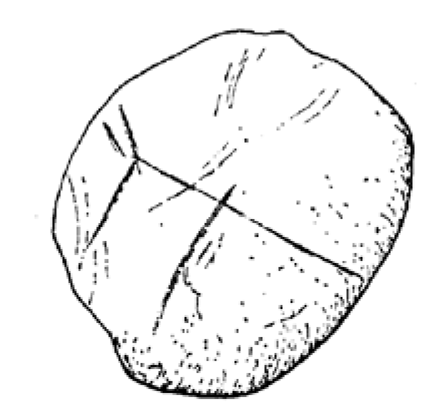


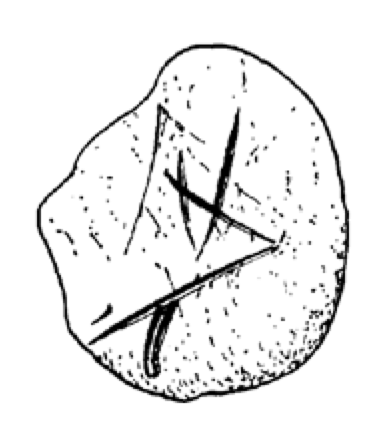


تماثيل حيوانات من الطين من موقع منهاتا [المنحطة]

1- كوفان، ديانات...، مرجع سبق ذكره، ص (103-108).

ومن جهة ثانية، فهناك حجران من شعار هاجولان تبدو عليهما ملامح حيوانات منحوتة. في الحالة الأولى يمكن أن نميّز بلا تردد ثوراً، وفي الحالة الثانية يرى ستكليس عنزة برية.[1]





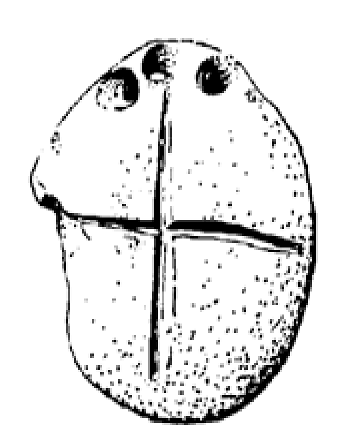
تماثيل حيوانات على الحصى من موقع شعار هاجولان

الرسوم الهندسية

لا يمكننا إلا أن نشير إلى الرسوم الهندسية التي نُقشت على الحجر وبكثرة في عدة مواقع، ولكن، دون أن نستطيع تفسير هذه الرسوم. في بعض الأحيان، كانت النقوش ناعمة، متوازية أو متصالبة، على حصى مسطّحة أو دائرية، وفي أحيان أخرى أيضاً ظهرت هذه النقوش عميقة من الحجر الكلسي، وغطّت سطحه بزخرفة هندسية أكثر تعقيداً، وربّما كان لها دلالة رمزية، لكنها غامضة علينا، فقد ظهرت في شعار هاجولان؛ حيث نحتت أشكالها أربع زوايا على شكل مربّعات متداخلة. وهناك قلادة من قسمت، بواسطة صليب، إلى أربعة أجزاء، وزُوِّدت بثلاثة ثقوب لتعليقها.[2]

1- كوفان، ديانات...، مرجع سبق ذكره، ص (108-110).

2- كوفان، ديانات...، مرجع سبق ذكره، ص (110-112).

حزور هندسية على الحصى من موقع شعار هاجولان

يحدّثنا ميلارت عن الحضارة اليرموكية بالقول، أشكال الفخار هنا أصبحت أكثر تطوراً؛ حيث ظهرت جرار ذات أعناق وقبضات وقواعد مستوية. وهذا الفخار مغطّى بطبقة رقيقة من الدهان الأحمر، ومزخرف بنماذج محفورة أو منقوشة على شكل سمك السردين. كما وأن الصناعة الحجرية تُثبت وجود صلات قوية مع جبيل في المرحلة الوسيطة من العصر الحجري الحديث، إضافة إلى التماثيل الصغيرة المصنوعة من الحصى، والتي تتميّز بالملامح المنقوشة. لقد ظهرت هذه التماثيل مع تماثيل أخرى من الغضار المشوي، والتي تتميز أيضاً بوجود العيون الجاحظة والأنوف والشفاه البارزة. وهكذا فإن التماثيل هذه المصنوعة من الحصى والأشكال والنماذج الغضارية تبيّن وجود علاقة وثيقة مع النماذج الأناضولية في هاشيلار VI التي انتهت في عام 5600 قبل الميلاد.[1]

1- ميلارت، أقدم...، مرجع سبق ذكره، ص 81.

دولمن

وتنتشر في فلسطين، وخصوصاً في شرق الأردن، حقول دولمن عديدة كبيرة وصغيرة. والدولمن (من الكلمات القديمة التي تعني «حجر» أو «مائدة») مبنى يتألّف أساسياً من قطع ضخمة من الحجر.

مقامة بعضها بجوار بعض لتكوين جدران غرفة أو ممرّ أو مجموعة من الغرف، ثمّ وُضعت فوقها قطع ضخمة أخرى لتكوين السقف. وكان كل المبنى في الغالب مطموراً في كومة من التراب أو الحجارة. وبالإضافة إلى هذه المباني، توجد أيضاً صفوف من أحجار مرتفعة ضخمة: منهيرات ودوائر حجرية وغير ذلك. كما كشف عن تحصينات ضخمة قليلة لها نفس الأسلوب في البناء. والصفة المميزة لكل الإنشاءات من هذا النوع التي تمت دراستها حتّى الآن، هي عدم وجود فخار بها، كاملاً أو على هيئة شقف، على أنه عُثر على أوان قليلة من عصور تاريخية متأخّرة، وعلى بعض قطع من الشقف الحديث نسبياً في دولمينات مفتوحة أو بالقرب منها. وتوجد إنشاءات ميجاليثية (أي مشيدة بأحجار ضخمة) الجزء الرئيسي منها من الدولمينات، في بقاع كثيرة في أوراسيا (أوروبا وآسيا)، ويمكن تأريخ ما يقع منها في الشمال الغربي لأوروبا، بما بين الألف الخامسة والألف الثالثة، بينما قد يرجع تاريخ المعابظ الميجاليثية، مثل ستون هينج Stonehcnge إلى الألف الثانية قبل الميلاد.

وحيث إن دولمينات فلسطين تتفق في الشكل أو النمط مع دولمينات العصر الحجري الحديث أكثر ممّا تتفق مع دولمينات العصر البرونزي في أوروبا، فإنه يمكن تأريخها بلا تردد بالعصر الحجري الحديث الفلسطيني، أي فيما بين 7000 و4000 (وربّما 4500) ق.م، ومن المؤكد أن هذه الدولمينات قد بُنيت على نمط المنازل التي عاش فيها الناس، وقد تردّد هذا القول بين الحين

والآخر، غير أنه يمكن الآن إثبات ذلك بحيث أصبح بعيداً عن كل شك بفضل التنقيب الذي قام به ويشتر J. Waechter وسيتون ويليامز V. A. Seton Williams في وادي دوباى جنوب شرقي عمان (1937-1938)، فقد وجدا هناك أدوات حجرية مثل تلك التي وُجدت من الحضارة الطاحونية في فترة ما قبل الفخار في أريحا، ومعها أكواخ مشيدة بوضع قطع من الحجر الجيري على الحافة لتكوين أشكال دائرية تقريباً. وعلاوة على ذلك، كشف جارستانج عام 1947، في مناسيب فترة ما بعد الفخار في العصر الحجري الحديث بمرسين في كيليكية عن مبان «ميجاليثية» شيدت بوضع كتل ثقيلة من الحجر جنباً إلى جنب، ثمّ وضع كتل أخرى فوقها لتكوين الجدران.

وشيدت بهذه الطريقة كل من الغُرف والممرات، وقد يزن الحجر الواحد عدة أطنان. وإذا كانت ثمة حاجة إلى مزيد من الأدلة لتأييد التاريخ المبكر للدولمينات الفلسطينية، فإنه من السهل إيرادها: وعلى سبيل المثال، لا يمكن أن يكون قد تم بطريق الصدفة حفر مقابر الغسوليين (التي كشف عنها ستكليس Stekelis) في الأرض، وتبطينها بالأحجار، ثمّ تغطيتها بقطع صغيرة. وهذا الأسلوب في البناء يشبه في جوهره المباني الميجاليثية، فيما عدا أن الأحجار صغيرة، ويمكن لرجل واحد أن يحملها. [1]

1- أولبرايت، آثار فلسطين، مرجع سبق ذكره، ص (65-67).

الفصل السابع

حضارة تليلات الغسول

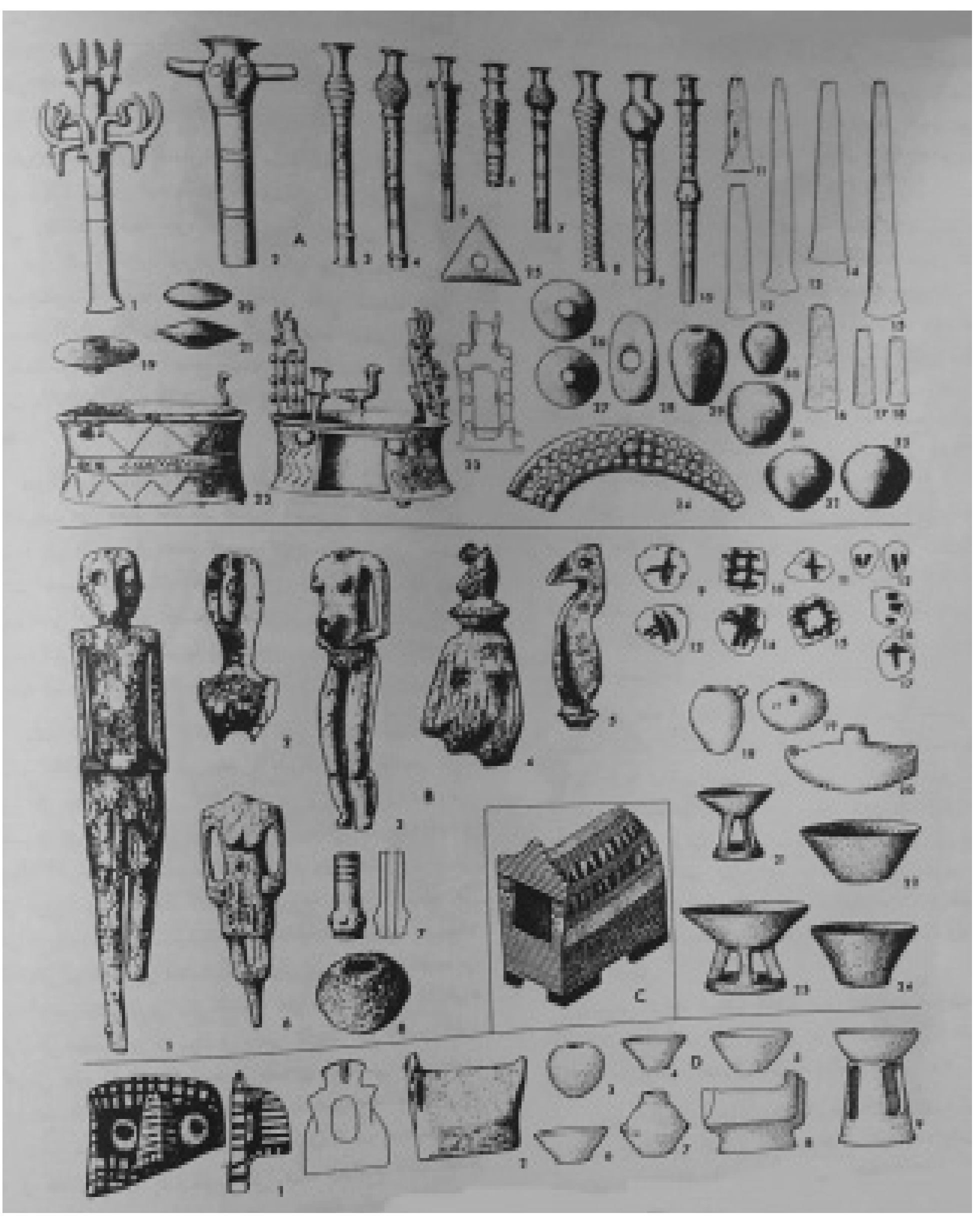
خطت الحضارة في تطوراتها خلال هذا العصر خطوات سريعة إجمالاً، وقد أعقب اختراع صناعة الفخار اكتشاف وسيلة تطبيقية أخرى ذات أهمية بالغة ــ ألا وهي صهر النحاس. ولكن الجهود الأولى في هذا المضمار لم تخرج عن طور التجريبية. وظلت الأدوات الصوّانية تستعمل مدة من الزمن في هذا العصر، الذي اتصلت أثناءه التجارب لصناعة استخراج المعادن. [1] يري د. حتّى، أن اكتشاف النحاس، قد حصل في غربي آسيا بعد اختراع الخزف بمدة وجيزة. [2]

ويقسم العصر الكالكوليثي (الحجري النحاسي) إلى ثلاثة مراحل رئيسية هي: العصر الكالكوليثي (الحجري النحاسي) المبكر، ويشمل بصفة خاصة أريحا (8) وعدة مواقع في وادي غزة في الطرف الجنوبي لفلسطين، العصر الكالكوليثي (الحجري النحاسي) المتوسط، الغسولي، والعصر الكالكوليثي (الحجري النحاسي) المتأخر، ويشمل على الأخص عزردرايلون [سهل مرج ابن عامر] والطبقة الخاصة بهذا العصر في بيرشيبيا. [3]

1- لانكستر هاردنج، آثار الأردن، ترجمة: سليمان موسى، ط1، عمان، منشورات اللجنة الأردنية للتعريب والترجمة والنشر، 1965، ص (22-23).

2- د. حتّى، تاريخ...، مرجع سبق ذكره، ص 24.

3- أولبرايت، آثار فلسطين، مرجع سبق ذكره، ص 69.



أدوات نحاسية وعظمية، وآنية فخارية وصوانية، وتماثيل ورؤوس دبسات وثقالات نسيج من مواقع متعددة في فلسطين، تمثل حضارة العصر الحجري النحاسي
(معاوية إبراهيم، الموسوعة الفلسطينية)

فقد انتشرت سمات حضارة العصر الحجري النحاسي في فلسطين في مواقع عديدة، منها المنطقة الواقع شرقي البحر الميت والمنطقة والواقعة بجوار نابلس، ومجدّو، وبيسان وبئر سبع. ومنطقة بئر الصفدي بالقرب من بئر السبع وخربة البيطار، وتل أبو مطر وموقع أبو حامد وتل الفارعة وتل شونة وسهل مرج ابن عامر (عزردرايلون) ومنطقة شقميم ومنطقة كهف الجليل ومجموعة مواقع على طول وادي غزة عند صحراء النقب الشمالية، مثل موقع القطيف وتل عرار ومدينة الخضيرة على الساحل الفلسطيني وبيسور وجنين وعين جدي.

العصر الكالكوليثي (الحجري النحاسي) المبكر

تعتبر أريحا (8) أقدم طبقة معروفة من العصر الكالكوليثي، ويمكن تأريخها بصفة مبدئية بحوالي أواخر الألف الخامسة. وفخار هذا المنسوب يختلف اختلافاً بيّناً عن فخار العصر الحجري الحديث السابق له في الطبقة أريحا (9). ففي أريحا (9) كان الطين يُخلط بالتبن لتحسين قوامه، بينما نجد في أريحا (8) أن الطين قد خُلط بحبيبات كبيرة وصغيرة من الحجر بدلاً من التبن. والآلات الصوّانية في أريحا (8) لها نفس الطراز الخاص بالعصر الحجري الحديث، ولا تزال تشمل رؤوس سهام عديدة من الصوّان. وحتّى في الطبقات السفلى من العصر الغسولي التي لم تُحفر بعد، يلاحظ أن رؤوس السهام قليلة ورديئة الصنع، وعندما نصل إلى المنسوبين العلويين في نفس هذا الموقع، نجد أنها قد اختفت تماماً، كما ذكرنا أنفاً. ومعظم طبقة مجدو، وبعض مراكز العمران المبكرة في غزة، والآلات الصوّانية والأواني الفخارية التي كشف عنها ستكليس في مغارة أبو عصبة، ربّما تكون كلها أيضاً أمثلة من فترة ما قبل المرحلة الغسولية في العصر الكالكوليثي. وفي 1946 – 1947 اكتشف دي فو (R. de Vaux)

رواسب العصر الكالكوليثي المبكر من نفس فترة ما قبل الغسولي (هكذا ذكر) في آخر طبقة سفلى في تل الفرعة في الشمال الأوسط لفلسطين. [1]

العصر الكالكوليثي (الحجري النحاسي) المتوسط، الغسولي

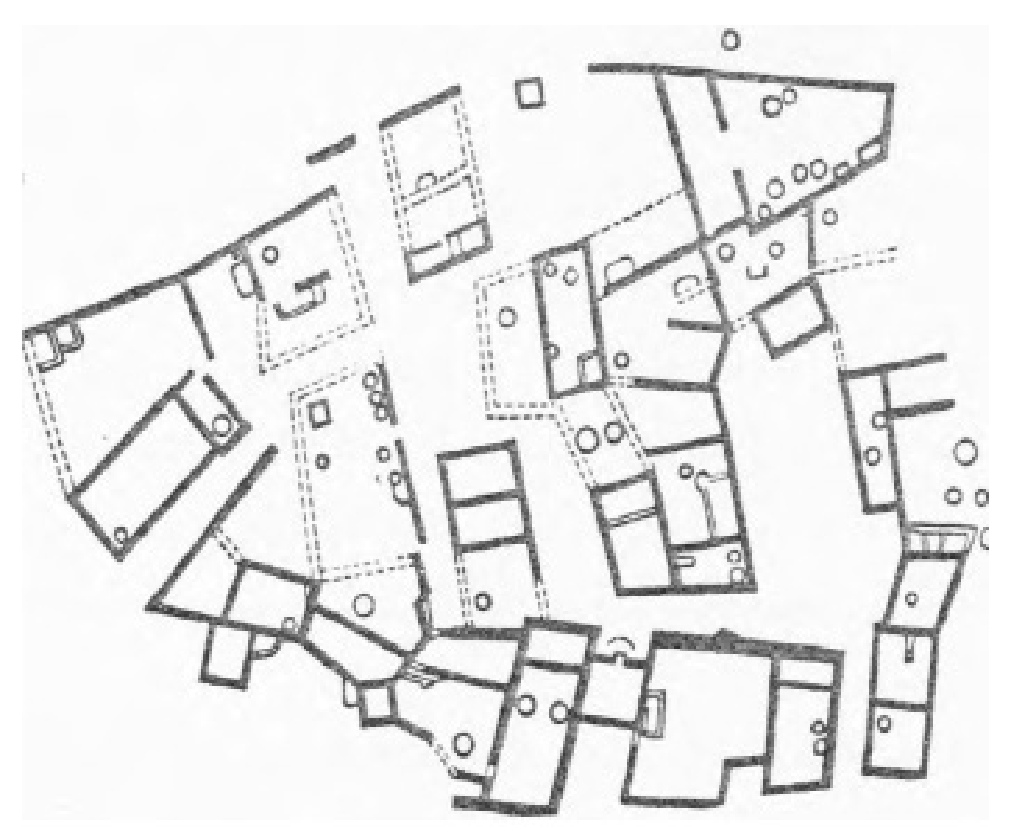
الموقع النموذج لحضارة العصر الكالكوليثي (الحجري النحاسي) المتوسط، هو تليلات الغسول موقع أثري، مساحته 20 هكتاراً، يتألف من مجموعة من التلال الصغيرة، الواقعة إلى الشمال الشرقي، من البحر الميت بنحو 5 كم، وبناء على ذلك، سُمّيت هذه الحضارة غسولية.

فقد اكتُشف الموقع عام 1928، ثمّ أُجريت فيه تنقيبات بين أعوام 1929 - 1938، أشرف عليها المعهد البابوي التوراتي بروما، وشارك فيها كل من مالون (A. Mallon) وكوبيل (R. Koeppel) ونوفيل (R. Neuville) واستكمل الأب نورث (R. North) هذه الأعمال عام 1960، ثمّ تابع بين أعوام 1967 - 1978، الباحث هنسي (B. Hennessey) التنقيب فيه باسم المدرسة البريطانية للآثار في القدس، وجامعة سيدني في أسترالية. واستأنفت جامعة سيدني التنقيبات، في الموقع، من 1996، بإدارة بورك (Bourke).

وتعطينا الحفريات التي أُجريت في تليلات الغسول، صورة للحياة في هذا العصر، حوالي سنة 3500 ق.م تقريباً. هنا كانت قرية متوسطة ذات منازل حسنة البناء، بعضها بُني من الآجرّ المجفّف بفعل حرارة الشمس فوق أساس من الحجر، وبعضها الآخر بُني كُلّيّاً من الآجر الترابي. أما السقوف؛ فيحتمل أنها كانت من الخشب وأعواد القصب والطين، وترى جدران بعض المنازل، وقد

1- أولبرايت، آثار فلسطين، مرجع سبق ذكره، ص 70.

طُليت بالكلس ودُهنت بألوان فاتحة مع رسوم تمثّل الإنسان والنجوم، وأحياناً بعض الأشكال الهندسية.[1]

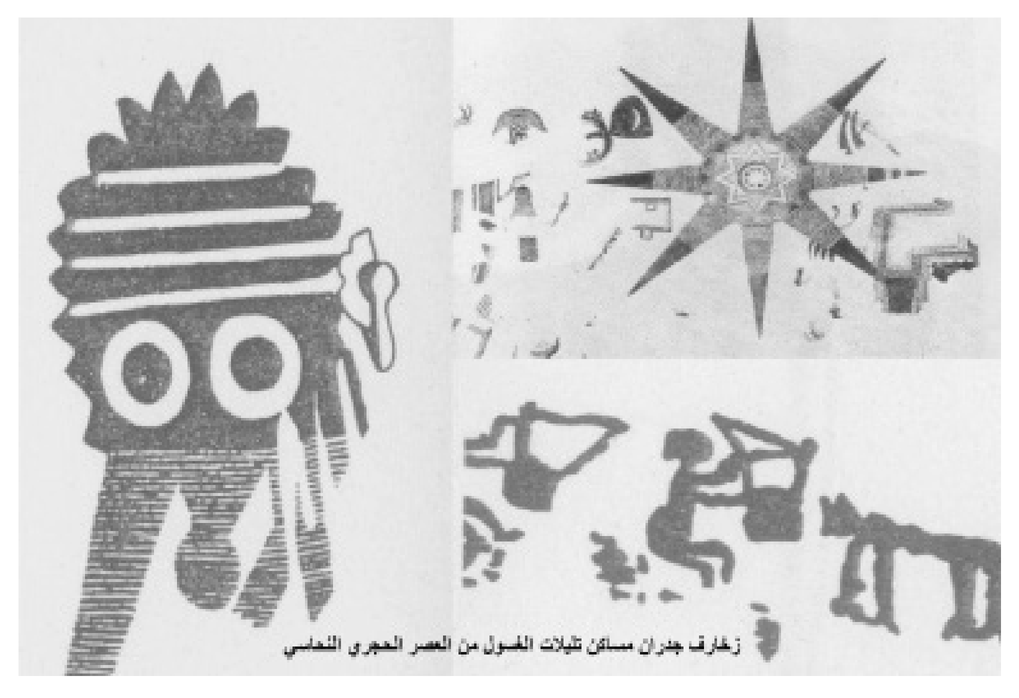


تخطيط مساكن تليلات الغسول من العصر الحجري النحاسي

يحدّثنا أولبرايت، عن ذلك بالقول: وإنه لمن الغريب حقاً أن يبلغ فن الزخرفة الهندسية الملونة درجة عالية من التنسيق والإبداع في أوائل الألف الرابعة في فلسطين وسوريا وما بين الرافدين أكثر ممّا بلغه بعد ذلك بآلاف السنين. وإن تنوع الزخارف ذات الألوان المتعددة على السطح الداخلي للأواني أو الأوعية والصحاف في أيام حضارة تل حلف؛ ليعد نفوسنا لاستقبال الفريسكو المركّب المدهش المتعدّد الألوان

1- هاردنج، آثار الأردن، مرجع سبق ذكره، ص 23.

الذي وُجد في تليلات الغسول، ويمثّل نجمة ذات ثمانية فروع مدبّبة. وحول النجمة توجد أجزاء من خلفية معقّدة للصورة، تحوي رسوماً دقيقة لحيوانات خرافية وأشكال هندسية. وثمّة لوحة ملونة أخرى محفوظة حفظاً جيداً، تمثّل طائراً ملوّناً، يحاكي الطبيعة في كل تفاصيله، حتّى إنه لا يمكن أن يوجد لها مثيل في العصور المبكرة التالية فيما عدا مصر.



زخارف جدران مساكن تليلات الغسول من العصر الحجري النحاسي

وهناك أيضاً لوحة ملوّنة، ولكنها تالفة، يبدو أنها تصوّر حفل استقبال من نوع ما، ويظهر فيها رجل يواجه اليمين، بينما يجلس أمامه شخصان، يضع كل منهما قَدَمَيه على موطئ للقدمين ذي أربعة أرجل، تماماً كما صُوّر في العصور المتأخّرة، ولمّا كان أول هذين الشخصين يلبس حذاء مطرزاً، فلعله يمثّل سيدة من طبقة الأشراف، أو آلهة. [1]

1- أولبرايت، آثار فلسطين، مرجع سبق ذكره، ص 71.

وقد عثروا في تليلات الغسول على فأس، ثبت من التحليل أنها تكاد تكون مصنوعة من النحاس الخالص. وعثروا أيضاً على تماثيل كلاب من الطين وأسنة عظمية، الأرجح أنها كانت تُستعمل في الحياكة للقذف بسدي النسيج بين لحمته. وأسنة عظمية أخرى تُستعمل في خياطة الأقمشة الغليظة والجلود، كما يُستعمل الإسكاف المخرز. وعثروا على ملاعق من الفخار، وصحون ومغارف، كانت تُستعمل لصبّ الطعام الحارّ من القدر في الصحون. [1]

يقول هاردنج، ولقد أحرزت صناعة الفخار تقدماً ملموساً؛ إذ كانت تُشوى جيداً في النار، وصارت تُصنع على أشكال عديدة وزخارف مختلفة، وكانت هذه الزخارف غالباً ما تمثّل رسوماً هندسية متقنة، لونها أحمر أو بُنّي، وتُرى على قواعد بعض جرار الفخار آثار عيدان القصب الملتوية، ممّا يدلّ على صناعة الحصر والسلال. بينما تدل بعض الحجارة المستديرة المثقوبة أنهم كانوا يستعملونها مغازل لغزل الخيوط. وكانت النساء يتزيّنّ بقلائد من الصدف والحجارة. أما الرجال ـ إذا صح تفسير الرسم ـ فقد كانوا ذوي لحى، ويستعملون الوشم، بينما بدا أحد الأشخاص وهو يلبس خفّين مزّيّنتين. [2]

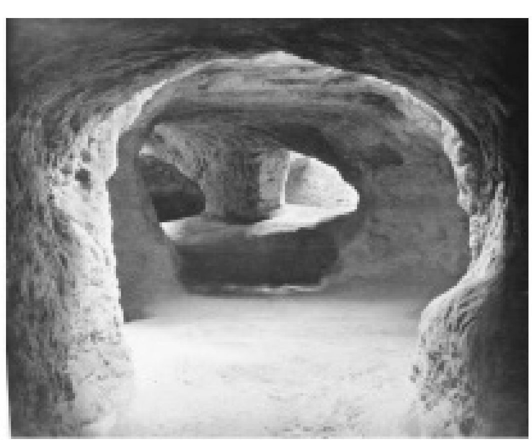
تحتلّ بئر السبع أهمية خاصة، نظراً إلى طبيعة المستوطنات وأساس اقتصادها، إذ إنها ليست في العادة قريبة من مصادر المياه، وبناء عليه، يعتقد الباحثون أن السكان زرعوا القمح والشعير في موسم الشتاء، واشتغلوا بالرعي في مناطق البادية، فضلاً عن استخراج النحاس من وادي عربة، كما يبدو. وقد وُجدت في مواقع بئر السبع: خربة البيطار وبئر الصفدي وتل أبو مطر، دلائل واضحة على تصنيع النحاس من أدوات وأفران. [3]

1- الدباغ، بلادنا فلسطين، الجزء الأول، مرجع سبق ذكره، ص 366.
2- هاردنج، آثار الأردن، مرجع سبق ذكره، ص 23.
3- شوفاني، الموجز في...، مرجع سبق ذكره، ص 14.

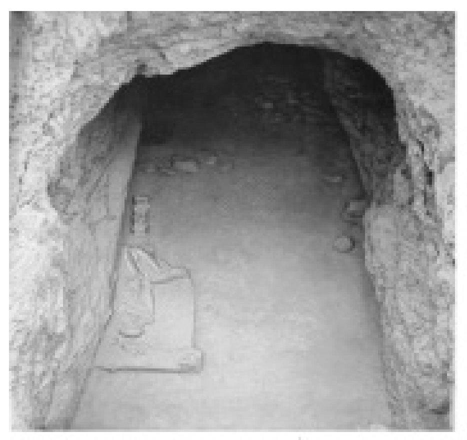
وفي بئر السبع قام أهل تلك الحضارة في موقعهم والمواقع التابعة بزراعة القمح والشعير والعدس، وحصدوها بمناجل من الظران، وربّوا الماعز والكباش والأبقار، وصنعوا الزبد، واستخدموا الكلاب ربّما في الحراسة.وقد نحتوا التماثيل الآدمية، ويُنسب إلى تلك الحضارة احد تماثيل المعبودة الأمّ المشهورين في الشرق الأدنى بشكلها المميّز الحامل، وواضعة يدها أسفل بطنها.

أما عن منازلهم؛ فقد حفروا بعضها داخل الصخور، كما في بئر صفدي، ويؤدي إليها ممر أو ممارّ، والممرّ يؤدي بدوره إلى غرف جانبية، وقد حُفرت في الصخر. وتمثّلت البيوت الكهفية هذه في حجرات سفلية مستديرة أو بيضاوية، يصل إليها الأهالي عن طريق درج أو أنفاق أو آبار راسية، تؤدي إلى ممرات، تنتهي بالغرف. ويرى البعض أن تلك النوعية من المساكن كانت لبيئة الحارة خلال النهار والباردة خلال الليل، وتحمي من العواصف. وفي مرحلة لاحقة، أُقيمت منازل أخرى من الطوب اللبن، لها أساسات من الحجر، بينما غُطّيت أرضيّتها بالحصير، وصُنعت الأسقف من جذوع الشجر.

وفي بئر صفدي، التابع لحضارة بئر سبع، كُشف عن مستوطنة نحاسية، بها مدافن أسفل المساكن، فضلاً عن المساكن الكهفية والمقابر الصخرية.



مساكن كهفيه من بئر الصفدي حضارة بئر سبع ـ عصر نحاسي



مقابر صخرية من بئر الصفدي ـ عصر نحاسي

كما تقدمت الصناعات من العظم والعاج والممثّلة في أدوات التزين والتماثيل الصغيرة ذات الوجوه الغريبة. [1]

يقول شوفاني، إنه عُثر في موقع بئر الصفدي على عدد كبير من الدمى والتماثيل المصنوعة من العاج، وهي تُعتبر من أقدم العاجيات المصنّعة في الشرق الأدنى القديم، إضافة إلى الحلي النحاسية، وكلها معدّة كما يبدو للتجارة مع الخارج. [2]



رؤوس آدمية من العاج من بئر الصفدي - عصر نحاسي

ويعتبر موقع أبو مطر شمال صحراء النقب، من المواقع النحاسية الهامة التي تدل على استخدام النحاس وعمليات صهره في وقت مبكر، حيث كُشف عن أدوات وآلات نحاسية وحجرية زراعية وكذا حلي وأدوات تزيين من العاج بحليات آدمية. وبجانب الأواني الفخارية، كُشف عن أواني حجرية من البازلت.

1- مجلة مهد الحضارات (دمشق)، د. أحمد سعيد، أهم الملامح الحضارية لفلسطين خلال العصرين الحجري الحديث والنحاسي، عدد خاص بالقدس، الندوة الدولية القدس في التاريخ، وزارة الثقافة ـــ المديرية العامة للآثار والمتاحف، سوريا، (2009-2010)، ص (45-46).

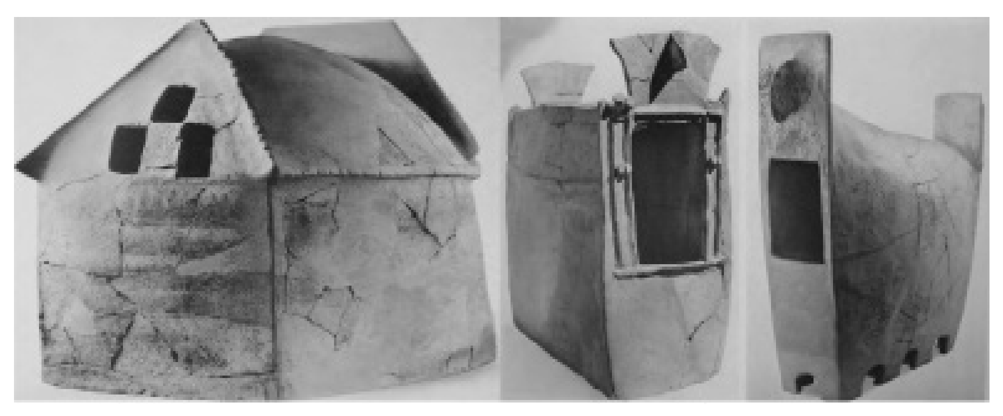
2- شوفاني، الموجز في...، مرجع سبق ذكره، ص (14-15).

بينما كانت مساكنها مستطيلة الشكل، وتتكوّن من أكثر من غرفة، ومَبنية بالطوب اللبن المجفّف، وأرضيتها مَطلية بالجص، أما جبانتهم؛ فكانت مستقلة، واحتوت على دفنات فردية وجماعية. وتميّزت منحوتاتهم بتماثيل المعبودة الأم. [1]



أواني بازلتية من أبو مطر – حضارة بئر سبع
عصر نحاسي

وفي موقع كهف بالماهيم الذي يقع بالقرب من مدينة حيفا، كُشف عن مجموعة من التوابيت الفخارية الجنائزية الملونة والمخصصة لدفن الأطفال ومشكلة على هيئة ربّما منازل ذات سقف جمالوني ومداخل واسعة وبها بقايا الهياكل العظمية مع بعض القرابين من أواني فخارية وأدوات حجرية وناسية وخلافه.



نماذج مباني ومساكن فخارية وطمي محروق كمستودع لحفظ العظام، من آزور أو عين زور
متحف القدس – العصر النحاسي

1- مجلة مهد الحضارات (دمشق)، د. أحمد سعيد، أهم الملامح الحضارية لفلسطين خلال العصرين الحجري الحديث والنحاسي، عدد خاص بالقدس، الندوة الدولية القدس في التاريخ، وزارة الثقافة ــ المديرية العامة للآثار والمتاحف، سوريا، (2009-2010)، ص 45.

كما وُجدت مثل تلك الفخاريات في كل من منطقة أزور وبين شمين، والتي استُخدمت كمدفن أطفال أو مستودع عظام.

في موقع شقميم، كُشف عن عدة مساكن، تتكوّن من أكثر من غرفة، وكان بها أماكن لطهي الأطعمة، وعُثر بها على العديد من الأواني الفخارية مختلفة الأشكال وأدوات نحاسية وحجرية ومنحوتات بازلتية وخلافه. كما كُشف عن منشآت أخرى ذات مساحات كبيرة، قد تكون أماكن عبادات. أما الجبّانة؛ فكانت مستقلة، واتخذت قبورها الشكل الدائري، وأُحيطت بالأحجار، وكانت الدفنات إما جماعية أو مفردة ولجميع الأعمار من الجنسين، بينما عُثر أيضاً على دفنات الأطفال داخل جرارة فخارية. وقد كُشف بها عن العديد من الأدوات النحاسية وغيرها.

بالقرب من شقميم، وفي موقع جيلات كُشف عن معبد، عُثر به على مجموعة من اللقى الهامة، أهمها منحوتة فخارية ملونة مميزة للمعبودة الأمّ، تحمل إناء للبن، وتمثالاً فخارياً لكبش فوق ظهره ثلاث أبواق.

وفي موقع واحة جدي على الساحل الغربي للبحر الميت كُشف عن أطلال معبد حجري، يرجع للعصر النحاسي عبارة عن فناء كبير حوالي 2×20 متر، ويُفتح على أكثر من صالة، وبه مذابح للأضاحي.

وفي منطقة نحل مشمار ونحل بدير في الضفة الغربية غرب البحر الميت، والتي تؤرّخ بفترة الغسولية عُثر على مصنوعات جلدية ومنسوجات وبقايا نول خشبي والعديد من الأدوات والآلات النحاسية من بلط ورؤوس دبابيس وخلافه، والغريب أنها كانت ملفوفة في حصير لسبب مجهول؛ حيث كُشف عن أكثر من أربعمائة قطعة نحاسية مختلفة الأشكال والأغراض من صولجانات ورؤوس صولجانات وأواني ورؤوس حيوانية فوق حوامل وغيرها تتراوح أطوالها من 15 إلى 30 سم فضلاً عن أدوات حجرية ومشغولات عاجية، كما كُشف عن أطلال معبد أو هيكل، أُقيم فوق

مرتفع، ويتكوّن من فناء واسع، في شماله مقصورة كبيرة رئيسية، طولها 20 م، ومدخلها في الوسط، وأمامه مذبح، عُثر حوله على بقايا عظام حيوانية وكسرات فخار. ثمّ مقصورة ثانوية في الشرق، ولها مدخلان: الأول في الشمال والآخر في الشرق.

ولعل من أهم المواقع التي ترجع للعصر النحاسي هو كهف نحل قناة الذي يقع شمال الضفة الغربية؛ حيث كُشف به عن كنز ذهب، عبارة عن ثمن حلقات من الذهب والإلكتروم استُخدما كحلي وزنهم إجمالي 1 كيلو جرام، فضلاً عن بقايا فخارية وعظام آدمية وأدوات حجرية، تبدأ تاريخه من العصر الحجري الحديث الفخاري. [1]

يقول و. أولبرايت، نشأت مراكز عمران جديدة في أماكن مثل بيسان التي تقع على عرض الطريق بين مجدو والأردن؛ حيث قد يرجع تاريخ الطبقة بيسان (18) إلى آخر العصر الغسولي. وهذه الحضارة استمرت في ثوب متحور في بئر سبع في الجنوب؛ حيث وجد برو وآروني Perrot and Aharoni قرى، دلّ تأريخها بالكربون المشعّ على أنها ترجع إلى القرن الرابع والثلاثين أو الثالث والثلاثين. ويتعاصر مع بيسان (17-16) موقع كبير في وسط وادي الأردن، هو تل أمّ حماد الشرقي الذي كُشف عنه نلسن جلويك. أما الطبقة مجدو (20)، وهي أعمق طبقات العمران في هذا الموقع العظيم الذي يطل على سهل عزدرايلون (مرج ابن عامر) الغربي؛ فليست للأسف مكوّنة من مرحلة حضارية واحدة، بل هي طبقة مختلطة، تظهر بها مخلفات مراحل مختلفة، تمتد من العصر المبكر إلى العص الغسولي أو مرحلة عمرانية تالية له مباشرة (تشترك مع العصر الغسولي

1- مجلة مهد الحضارات (دمشق)، د. أحمد سعيد، أهم الملامح الحضارية لفلسطين خلال العصرين الحجري الحديث والنحاسي، عدد خاص بالقدس، الندوة الدولية القدس في التاريخ، وزارة الثقافة ــ المديرية العامة للآثار والمتاحف، سوريا، (2009-2010)، ص 46.

فـي وجود أبـواق من الطيـن في كل منهمـا) إلى مرحلـة بيسـان (16). وانتهى العصر الكالكوليثـي المتأخـر فـي بيسـان (18-16) حوالـي (3400-3200 ق.م) بمرحلـة استخدام فخـار رمـادي مصقـول وأسـود مصقـول، واسـتمرت هـذه الفتـرة حتّـى العصـر البرونـزي المبكـر الأول. وفـي بيسـان (16) نجـد بيوتـاً مـن نـوع مسـتطيل الشـكل تقريبـاً ذى طـرف مسـتدير، نُطلـق عليـه اسـم «محرابـي» apsidal، ويظهـر البيـت المحرابـي بعد ذلك فـي أريحا (6-7) ثمّ فـي مجدو، غير أن المسـاقط الأفقية لهذه البيوت ليسـت متشـابهة بالمرة في العصـور المختلفة. وأبـدع مخلفات لمرحلة الفخـار الرمـادي المصقـول الـذي أطلـق عليه رايـت فخـار» حضـارة عزردرايلون» [مرج ابن عامر] وجدها دي فو عام 1947 في تل الفرعة.

وفي مصر، كشف مصطفى عامر عن فخار فلسطيني بكميات قليلة في المعادي جنوبي القاهرة؛ حيث كانت توجد قرية كبيرة وجبانة من العصر الجزري المتوسط الذي لابد وأن يرجع تاريخه إلى ما قبل القرن الأخير من الألف الرابعة. وهذا الفخار يشبه بشكل مدهش فخار عزردرايلون الذي يرجع إلى القرنين الثالث والثلاثين والثاني والثلاثين قبل الميلاد.[1]

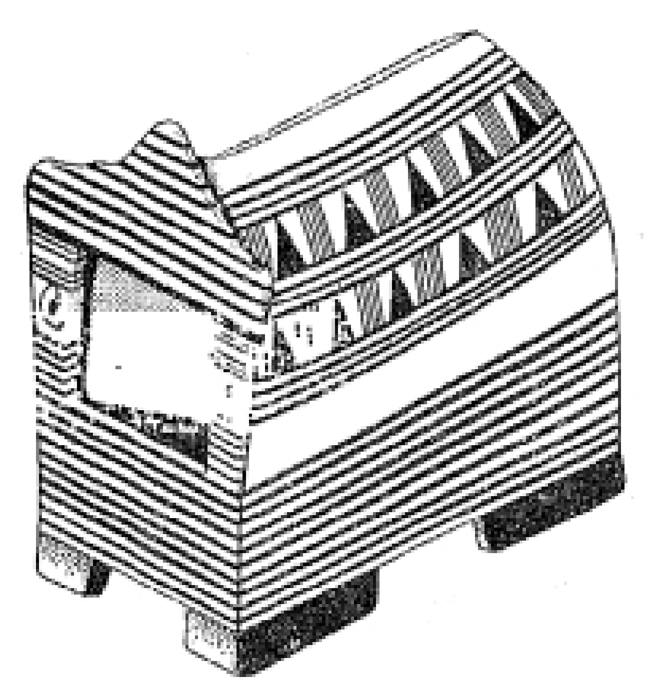
المدافن

ممّا تلاحظه في تليلات الغسول أنهم كانوا يدفنون الأطفال داخل أواني فخارية تحت أرضية غرف المنزل. كما نلاحظ أيضاً أن عادة حرق الجثث كانت معروفة بينهم، وكانت عادة دفن الأطفال في الأواني عادة منتشرة في مناطق أخرى في سوريا مثل أوجاريت وتل الجزر (جزر) جنوب شرقي الرملة في فلسطين.

1- أولبرايت، آثار فلسطين، مرجع سبق ذكره، ص (73-74).

وعلـى ذِكْـر جـزر وآثارهـا يمكننـا أن نضيـف إلـى معلوماتنـا عـن ذلـك العصـر أنهـم بـدؤوا يضعـون مـع الموتـى أوانـي فخاريـة فيهـا المـأكل والمشـرب، ممّـا يـدل علـى وجـود ديانـة بينهـم، وإيمـان بالبعـث. كمـا عُثـر أيضـاً تحـت الهيـكل فـي ذلـك التـل علـى بقايـا مـن حيـوان الخنزيـر الـذي كان يقدمـه سـكان سوريا القدماء إلى آلهتهم. [1]

وقـد قـام سـتكليس بالتنقيـب الجزئـي لجبانـة غسـول، وقـد حـوت أضرحـة، تبطنهـا مـن الداخـل وتكسـوها مـن الخـارج حجـارة، يذكّرنـا شـكلها وموضوعهـا بالدولمينات الميجاليثية (التي سبق ذِكْرها)، ولو أنها أصغر منها بكثير جداً.



مدفن من الطين مشكّل على هيئة بيت من الخضيرة، العصر الحجري النحاسي

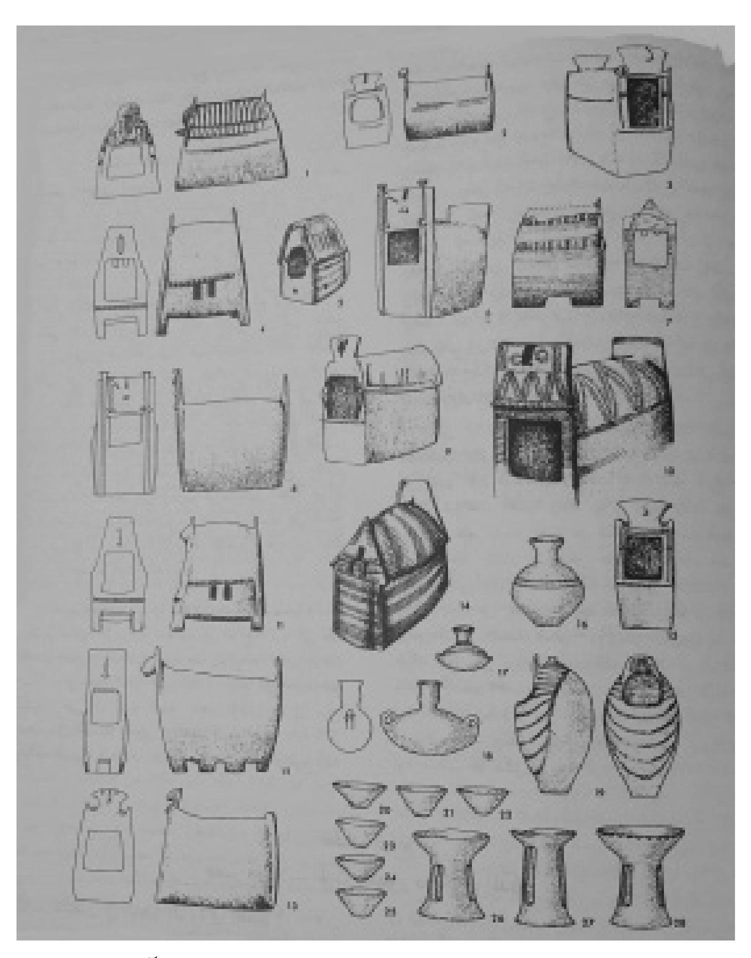
1- د. فخري، دراسات...، مرجع سبق ذكره، ص 58.

وفي سنة 1934 كشف سوكنيك عن مدفن على شكل كهف بالقرب من الخضيرة في سهل شارون، وعُثر فيه على صناديق من الطين، وفخار. وعدد من صناديق ملوّنة من الطين، وفخار، وعدد من صناديق ملوّنة من الطين مشكّلة على هيئة بيوت. وقد استُخدم هذان النوعان من الصناديق لحفظ عظام الموتى بعد فناء لحومهم. وكان الفخار يماثل الفخار الغسولي تماثلاً كبيراً. والصناديق (أو المقابر) التي تشبه البيوت ترتكز على أربعة أرجل مثل توابيت حفظ رماد الموتى في ألمانيا في العصر البرونزي التي تتشابه معها أيضاً في بعض ملامح أخرى. ومع ذلك، كانت المساكن المستطيلة ذات الأعمدة التي لها سقوف مسنّمة (سقوف جملون) وأبواب مضلعة، شائعة في مختلف المناطق والعصور، ولذلك ليس من الصواب إيجاد علاقة مباشرة بينها وبين طراز الصناديق التي تشبه هذه البيوت.[1]

يحدثنا د. الناضوري عن الفكر الديني في الحضارة الغسولية بالقول: انفردت الحضارة الغسولية في فلسطين بظاهرة استخدام الفخار الذي يتخذ شكل منازل، لها أسقف دائرية كمستودع لحفظ عظام الموتى. ومن ناحية قد عُثر على بقايا معمارية، يغلب كونها تمثّل معبداً ينتمي إلى الحضارة الغسولية، وممّا يعزّز ذلك تواجد بعض البقايا العظمية الحيوانية والشقف الفخارية في مواجهة المدخل، والتي يغلب أن يكون تفسيرها كمظهر من مظاهر التضحية بالقرابين في ذلك المعبد. كما عُثر أيضاً في حضارة بئر سبع على بقايا تماثيل عاجية، تعبّر عن فكرة الخصوبة، ممّا يوحي بتطور الفكر الديني نسبياً في تلك المرحلة.[2]

1- أولبرايت، آثار فلسطين، مرجع سبق ذكره، ص (71-72).

2- د. الناضوري: المدخل في التطور التاريخي للفكر الديني، مرجع سبق ذكره، ص (42-43).



مجموعة من الصناديق الفخارية استخدمت لحفظ عظام الموتى، وآنية ومزهريات فخارية من موقع يازور وتمثل جميعها حضارة الساحل الفلسطيني في العصر الحجري النحاسي (معاوية إبراهيم الموسوعة الفلسطينية)

تشير بقايا المدافن في هذه الفترة إلى درجة عالية من التمايزات الجنائزية. كما يشير التنزّع المناطقي في الممارسات الجنائزية إلى البناء الاجتماعي المعقّد في هذه الفترة. ويتجلّى هذا من خلال ممارسة الدفن الثانوي في المعاظم الفخارية والحجرية في المناطق الساحلية ومدافن الكهوف في المنطقة الوسطى واللحود والرجوم والأنصاب في المناطق الشرقية والشمالية شبه الجافة. ثمّ القبور الدائرية والنواميس

في النقب وسيناء. وقد تعبّر مجموعات القبور عن تقسيمات فروع سلالات النسب في الممارسات الجنائزية في العصر الحجري ــ النحاسي.

ويفسّر ساكس ظهور مناطق الدفن الخارجية كآلية لإسباغ شرعية الحقوق الجماعية للمجموعات السلالية على المصادر الأساسية كالأرض والماء...إلخ.

وتحافظ هذه الجماعات على مناطق دفن رسمية لدفن الميت. وتقدم هذه الفرضية أساساً لتفسير ظهور مقابر العصر الحجري ــ النحاسي المنفصلة مكانياً عن مناطق السكن. وأخذت هذه الحالة مجرى تطورها في العصرالحجري الحديث ما قبل الفخاري، وربّما بشكل بدائي في الفترة الناطوفية التي سبقتْءها بقليل، وهي تتفاوت في درجة تعقيداتها الاجتماعية الدخلية ودرجة التفاوت الاجتماعي.

وفي مقابر العصر الحجري الحديث الجماعية تم دفن الأطفال الكبار واليافعين والبالغين مع بعضهم بعضاً، بما يدلل على المكانة المتساوية لهذه الفئات العمرية. وقد دُفن الأطفال مع البالغين بعد وصولهم سن الخامسة أو السادسة. بما يشير إلى المكانة المكتسبة لهذه الفئة كعضو كامل في المجموعة، أما الأطفال الصغار دون السنتين؛ فقد دُفنوا تحت مصاطب البيوت في المستوطنة، بما ينطوي على مشاركة اجتماعية أقل باعتبار ذلك حدثاً عائلياً. وتتجلّى تقسيمات الجنس في التوزيع المكاني للمدافن، وفي المعاملة المميزة للجثة. وارتبطت عادة الدفن الثانوي في المدافن العامة بفئات البالغين والأطفال الكبار، في حين دُفن الأطفال الرضع ضمن علاقة واضحة مع المسكن في مدافن أولية. ولا توجد دلائل كافية حول ما إذا كان الجنسان قد تلقّيا نفس المعاملة، وذلك بسبب نقص تحديد الجنس خصوصاً في المدافن الثانوية.

لقد بات واضحاً بأن الأنصاب والرجوم المكتشَفَة في فلسطين والأردن تحوي قليلاً من البقايا العظمية. ولهذا لا يمكن اعتبارها مدافن جماعية.

وبالمقابـل فـإن هـذه المدافـن التذكاريـة هـي رمـوز لاسـتمرارية القبائـل المحليـة وعلاقاتها بالأرض.

ويمكن استنتاج وجود قدر من المراتبية الاجتماعية من نماذج البقايا الجنائزية في العصر الحجري ــ النحاسي. ويقدم النموذج المشيخي الذي اقترحه ليفي وألون في تفسيرهما للتمايزات الاجتماعية في شكيم (نابلس) أساساً لتحريات أخرى إضافية حول هذه الفترة، التي سبقت مباشرة ظهور المراكز الدينية المبكرة في فلسطين. [1]

ويكفـي أن نقـول إننـا لـو حكمنـا بنتائج حفريـات مجـدو وتليلات الغسـول، فـإن سـكان سـوريا (فلسـطين) قبـل وصـول الهجـرات السـامية (الجزريـة) كانـوا يعرفـون التعديـن، وكانـوا يعرفـون فـن النحت، وكانـوا يسـتخدمون الأختـام، ولهم ذوق فنـي فـي الحلـي، كما عرفـوا أيضاً عمـل التماثيل سـواء ما كان منها للإنسـان أو الحيـوان، كمـا بنوا البيـوت، وزخرفوا جدرانهـا بالرسـوم الملونة التي تمثّل أجسـاماً بشرية في تليلات الغسول.

ولاشك أن ذوقهم الفني قد وضح في صناعة الحلي وزخرفة المنازل، ولكنه وصل إلى قمته في زخرفة الأواني الفخارية، وقد عرفوا التزجيج في ذلك الوقت البعيد، واستخدموه في الأواني. [2]

1- الكرمل (رام الله)، حمدان طه، البقايا الجنائزية والتمايزات الاجتماعية في فلسطين، العدد 63، ربيع 2000، ص202.

2- د. فخري، دراسات...، مرجع سبق ذكره، ص 60.

الخلاصة والنتائج

لقد آن لنا أن نضع رحلنا، ونشرع بكتابه تصوراتنا واستنتاجاتنا، وقد قادتنا هذه الرحلة إلى عده نتائج، نلخّصها في النقاط الآتية:

- أن الإنسان وُجد في فلسطين منذ أقدم العصور، وأنه عاصر أقدم النماذج البشرية، فدلائل وجود الإنسان في فلسطين، تعود إلى حوالي المليون ونصف المليون عام.
- اتفق الباحثون على أن الإنسان الذي عاش على مقربة من كهف الطابون في جبل الكرمل بفلسطين كان حلقة بين الإنسان البدائي والإنسان الحالي، خصوصاً وأنه يمكن مقارنة هذا الإنسان أيضاً من الناحية التشريحية بما نسمّيه الآن الإنسان العاقل.
- تُشير نتائج الأبحاث الحديثة جداً، إلى وجود محتمل للإنسان العاقل، في فلسطين، منذ حوالي 100.000 سنة خلت، كما دلَّت على ذلك هياكلهُ، في جبل قفزة نفسهُ.
- الحقيقة الراهنة، على الأقل، وهي أن النياندرتال الفلسطيني هو الذي تطوَّر وحدَهُ، فيزيولوجياً وحضارياً، نحو الإنسان العاقل، جَدّنا المباشر، وصانع الحضارة الإنسانية، بمفهومها الشامل.
- سُمّيت الفترة الانتقالية بين العصر الحجري القديم والحجري الحديث بالعصر الحجري الوسيط، ودامت نحو ستة آلاف سنة اعتباراً من حوالي

عام 12000 قبل الميلاد، وتتمثل هذه الحضارة في بلادنا فلسطين بـ «الحضارة الناطوفية»، الذي سُمّيت لذلك باسم وادي النطوف شمالى غربى القدس. ويعتبر الناطوفيون خلفاء الكباريين [الحضارة الكبارية]، ولكن، بخصوصية متطورة جديدة، فقد ازدادت رقعة السكن، وتطوّرت الأدوات المصنّعة.

- كانت فلسطين الموطن الأصلي لزراعة الحبوب، فالأدلة الآثارية والنباتية الحديثة تشير إلى أن زراعة القمح والشعير بدأت في فلسطين. فمنذ حوالي عشرة آلاف سنة تقريباً، ظهرت أولى التجارب الزراعية في واحة أريحا. وأن أول برهان على تدجين الحيوانات ظهر هنا في فلسطين.
- أثبتنا بما لا يدع مجالاً للشك، أن أريحا هي كيان التاريخ مصغراً، فقد كانت أريحا خلال العصر الحجري الحديث قبل الفخاري مسورة وبها معابد، وهي أول موقع في العالم يتمتع بهذين المرفقين العاميين، ولذلك يحق وصف أريحا بأنها أقدم مدينة في العالم، وأن سكانها أول مجتمع متمدّن، ذلك أن وجود السور يشير إلى وجود سلطة سياسية وعسكرية، كما أن وجود المعبد يدل على وجود ديانة منظّمة ذات كهنوت وطقوس.
- بيّنّا أن الشعب الفلسطيني فعل أكثر بكثير من مجرد ابتكار الزراعة، وابتداع الديانات، وفنون الحكم، فلم يقتصر عملهم على التفنّن في الصناعات الخشبية، والحجرية، وفنّ البناء، بل امتد إلى معرفة الأصول الحسابية، والإلمام وأصول الجغرافية، واشتراع القوانين التي كانت تنظم الملكية، والعلاقات التجارية، والروابط الاجتماعية.
- تحدّثنا عن فترة ما قبل الفخار في العصر الحجري الحديث في فلسطين، فترة استخدام الفخار التابعة لنفس العصر؛ حيث ظهرت في فلسطين ثلاث

حضارات فخارية، هي: اليرموكية والساحلية (وخصوصاً في وادي رباح بالقرب من رأس العين) والمنحطة (غور بيسان). وفي هذه المرحلة حدثت تغيّرات متعددة، أكثرها وضوحاً كان في مجال الأواني الفخارية من حيث الاتفاق والألوان والزخارف، فضلاً عن تنوّع الأشكال. كما استُبدلت البيوت المستديرة بأُخرى مستطيلة، مؤلّفة من غرفتين أو ثلاث.

- يقسم العصر الكالكوليثي (الحجري النحاسي) في فلسطين، إلى ثلاثة مراحل رئيسية هي: العصر الكالكوليثي (الحجري النحاسي) المبكر، ويشمل بصفة خاصة أريحا (8) وعدة مواقع في وادي غزة في الطرف الجنوبي لفلسطين، العصر الكالكوليثي (الحجري النحاسي) المتوسط، الغسولي، والعصر الكالكوليثي (الحجري النحاسي) المتأخر، ويشمل على الأخص عزدرايلون (سهل مرج ابن عامر) والطبقة الخاصة بهذا العصر في بيرشيبا. ويكفي أن نقول إننا لو حكمنا بنتائج حفريات مجدو وتليلات الغسول، فإن سكان فلسطين كانوا يعرفون التعدين، وكانوا يعرفون فن النحت، وكانوا يستخدمون الأختام، ولهم ذوق فني في الحلي، كما عرفوا أيضاً عمل التماثيل سواء ما كان منها للإنسان أو الحيوان، كما بنوا البيوت، وزخرفوا جدرانها بالرسوم الملونة التي تمثّل أجساماً بشرية في تليلات الغسول، وأن ذوقهم الفني قد وضح في صناعة الحلي وزخرفة المنازل، ولكنه وصل إلى قمته في زخرفة الأواني الفخارية، وقد عرفوا التزجيج في ذلك الوقت البعيد، واستخدموه في الأواني.

المراجع

1. أحمد الدبش، يهودية الدولة: الحنين إلى الأساطير، ط1، القاهرة، عشتار للنشر والتوزيع، 2015.
2. د. أحمد فخري، دراسات في تاريخ الشرق القديم، ط2، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، 1963.
3. أشلي مونتاغيو، البدائية، ترجمة. د. محمد عصفور، الكويت، سلسلة «عالم المعرفة»، 1982.
4. الياس شوفاني، الموجز في تاريخ فلسطين السياسي (منذ فجر التاريخ حتّى سنة 1949)، ط1، بيروت، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، 1996.
5. أنطوان نمنم، المواقع الأثرية بفلسطين في فترة ما قبل التاريخ، دراسات في تاريخ وآثار فلسطين، المجلد الثاني، بدون دار نشر أو بلد، 1984.
6. بار يوسف وعمحاي مزار، علم الآثار في إسرائيل: وجهة نظر إسرائيلية، ترجمة: د. حمدان طه، ط1، القدس، المركز العربي للدراسات المعاصرة، 1994.
7. د. بشار خليف، دراسات في حضارة المشرق العربي القديم، ط1، حلب، مركز الإنماء الحضاري، 2003.
8. بورهارد برينتيس، نشوء الحضارات القديمة، ترجمة: جبرائيل يوسف، دمشق، الأبجدية للنشر، 1989.
9. بيتر فارب، بنو الإنسان، ترجمة. زهير الكرمي، الكويت، سلسلة «عالم المعرفة»، 1982.
10. د. تقي الدباغ، الوطن العربي في العصور الحجرية، ط1، بغداد، دار الشئون الثقافية العامة، 1988.
11. د. تقي الدباغ ود. وليد الجادر، عصور ما قبل التاريخ، بغداد، مطبعة جامعة بغداد، 1983.
12. توماس طمسن، الماضي الخرافي (التوراة والتاريخ)، ترجمة: عدنان حسين، ط2، دمشق، قدمس للنشر والتوزيع، 2003.

13. جـ. هاوكس ول. وولي، أضواء على العصر الحجري الحديث، ترجمة: د. يسرى عبد الرازق الجوهري، بيروت، مكتبة الجامعة العربية، 1967.

14. د.جاك كوفان، الوحدة الحضارية في بلاد الشام بين الألفين التاسع والسابع قبل الميلاد، ترجمة: قاسم طوير، ط1، دمشق، 1984.

15. جاك كوفان، ديانات العصر الحجري الحديث في بلاد الشام، ترجمة: د. سلطان محيسن، ط1، دمشق، دار دمشق للطباعة والنشر والتوزيع، 1988.

16. جاكوب برونوفسكي، ارتقاء الإنسان، ترجمة: د. أحمد مستجير، مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1987.

17. د. جمال الدين الخضور، عودة التاريخ ـ الأنتربولوجية المعرفية العربية / دراسة في الأناسة المعرفية العربية التاريخية- اللغوية ووحدتها ـ حتّى الألف الثاني قبل الميلاد، الجزء الأول، دمشق، منشورات اتحاد الكتاب العرب، 1997.

18. جان شالين، الإنسان: نشوؤه وارتقاؤه، تعريب: د. الصادق قسومة، ط1، دمشق، بترا للنشر والتوزيع، 2005.

19. جيمس ميلارت، أقدم الحضارات في الشرق الأدنى، ترجمة: محمد طلب، ط1، دمشق، دار دمشق للطباعة والنشر والتوزيع، 1990.

20. د. رشيد الناضوري، المدخل في التحليل الموضوعي المقارن للتاريخ الحضاري والسياسي في جنوب غربي آسيا وشمال أفريقيا، الكتاب الثالث: المدخل في التطور التاريخي للفكر الديني، بيروت، دار مكتبة الجامعة العربية، 1968.

21. د. سلطان محيسن، بلاد الشام ما قبل التاريخ في العصر الحجري القديم: الصيادون الأوائل، ط1، دمشق، الأبجدية للنشر، 1989.

22. سونياكول، ثورة العصر الحجري الحديث، ترجمة: د. تقي الدباغ ود. نادية سعدي الدبوني، ط3،، بغداد، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي ــ جامعة بغداد، 1965.

23. سيتون ليود، آثار بلاد الرافدين من العصر الحجري القديم حتّى الغزو الفارسي، ترجمة: محمد طلب، ط1، دمشق، دار دمشق، بدون تاريخ نشر.

24. د. عبد الحميد زايد، الشرق الخالد، القاهرة، دار النهضة العربية، بدون تاريخ نشر.

25. د. عبد الوهاب المسيري، الصهيونية والعنف، ط2، القاهرة، دار الشروق، 2002.

26. د. عمار عبد الرحمن، فنون ومعتقدات المزارعين الأوائل في المشرق العربي القديم «الإلهة الأمّ»، ط1، بدون دار نشر، 2009.

27. عيسى الحلو، عصور ما قبل التاريخ وتاريخ بابل القديم، بيروت، دار الطليعة، 1960.

28. ف. جوردن تشايلد، تقدّم الإنسانية، ترجمة: د. محمد السيد غلاب، مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1997.

29. ف. دياكوف وس. كوفاليف، الحضارات القديمة، الجزء الأول، ترجمة: نسيم واكيم اليازجي، ط1، دمشق، منشورات دار علاء الدين، 2000.

30. فاليرى غولاييف، المدن الأولى، ترجمة: طارق معصراني، الاتحاد السوفيتي، دار التقدم، 1989.

31. فراس السواح، دين الإنسان، ط4، دمشق، دار علاء الدين للنشر والتوزيع والترجمة، 2002.

32. فرنسيس أور، حضارات العصر الحجري القديم، تعريب: د. سلطان محيسن، ط2، دمشق، مطابع الألف باء ـ الأديب، 1995.

33. د.فيليب حتّي، تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، الجزء الأول، ترجمة: د. جورج حداد وعبد الكريم رافق، بيروت، دار الثقافة، بدون تاريخ نشر.

34. كارل ساغان، تنينات عدن: تأمّلات عن تطوّر ذكاء الإنسان، ترجمة: سمير حنا صادق، ط1، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة، 2005.

35. كارلتون كون ووادواردهنت، السلالات البشرية الحالية، ترجمة د. محمد السيد غلاب، القاهرة، مكتبة الأنجلو، 1975.

36. كيث وايتلام وآخرون، الجديد في تاريخ فلسطين القديمة، ترجمة: عدنان حسن وزياد مني، ط1، دمشق، قدمس للنشر والتوزيع، 2004.

37. لانكستر هاردنج، آثار الأردن، ترجمة: سليمان موسى، ط1، عمان، منشورات اللجنة الأردنية للتعريب والترجمة والنشر، 1965.

38. د. محمد السيد غلاب ود. يسري الجوهري، الجغرافيا التاريخية عصر ما قبل التاريخ وفجره، ط1، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، 1986.

39. محمود العابدي، الحفريات الأثرية في الأردن وفلسطين خلال (1900-1959)، عمان، 1962.

40. مصطفى مراد الدباغ، بلادنا فلسطين، الجزء الأول، كفر قرع، دار الهدي، 1964.

41. ميرسيا إلياد، تاريخ المعتقدات والأفكار الدينية، الجزء الأول، ترجمة. عبد الهادي عباس، دمشق، دار دمشق، 1987.

42. د. نجيب ميخائيل إبراهيم، مصر والشرق الأدنى القديم، الجزء الثالث: سورية، ط1، الإسكندرية، دار المعارف، 1959.

43. وليم أولبرايت، آثار فلسطين، ترجمة: زكي إسكندر ود. محمد عبد القادر محمد، مصر، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، 1971.

44. وليام هاولز، ما وراء التاريخ، ترجمة: د. أحمد أبو زيد، القاهرة، دار نهضة مصر، 1965.

45. د. يسري عبد الرازق الجوهري، شمال أفريقية دراسة في الجغرافية التاريخية، مصر، دار المعارف بمصر، 1978.

الجرائد:

1. جريدة الصنداي تايمز (بريطانيا)، 15 حزيران / يونيه 1969.

2. جريدة جيروزاليم بوست (ـــــــ)، 10 آب/ أغسطس 1967.

3. جريدة دافار (ـــــــ)، 12 كانون أول / ديسمبر 1978.

الدوريات:

1. المجلة الأردنية التاريخ والآثار (عمان)، عبد الحليم الشياب وخالد أبو غنيمة، أرقام وأعداد: إشارات ورموز من العصر الحجري الحديث ما قبل الفخاري في بلاد الشام، المجّلد 6، العدد 2، 2012.

2. مجلة الإكليل (صنعاء)، «Norman N. Whalenk»، هل اتخذ الإنسان الأول طريقة من أفريقيا إلى اليمن عبر باب المندب؟ ترجمة: د. عبد الحكيم شايف محمد وأزهري مصطفي الصادق، العددان (29-30)، وزارة الثقافة، مارس 2006.

3. مجلة الثقافة العالمية (الكويت)، برنار فندرميرش، أصل الإنسان المعاصر: الإنسان الحديث ما تقوله الآثار المتحجّرة، ترجمة: مدني قصري، العدد 78، السنة الثالثة عشرة ـــ سبتمبر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1996.

4. مجلة الثقافة العالمية (الكويت)، ريك جور، فجر الإنسان (النياندرتاليون)، ترجمة: د. شهرت العالم، العدد 78، السنة الثالثة عشرة ـ سبتمبر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1996.

5. الكرمل (رام الله)، حمدان طه، البقايا الجنائزية والتمايزات الاجتماعية في فلسطين،، العدد 63، ربيع 2000.

6. مجلة دراسات تاريخية (عمان)، خالد محمود أبو غنيمة، بواكير القرى الأولى وبداية الاستقرار في بلاد الشام، العددان (71 -72)، كانون ثان ـ حزيران، 2000.

7. سومر (بغداد)، عز الدين إسماعيل غريبة، الحضارة العبيدية في فلسطين، المجلد 45، 1987-1988.

8. مجلة مهد الحضارات (دمشق)، د. خالد أبو غنيمة، الاستيطان البشري في فلسطين والقدس خلال عصور ما قبل التاريخ، عدد خاص بالقدس، الندوة الدولية القدس في التاريخ، وزارة الثقافة ـــ المديرية العامة للآثار والمتاحف، سوريا، (2009-2010).

9. مجلة مهد الحضارات (دمشق)، د. أحمد سعيد، أهم الملامح الحضارية لفلسطين خلال العصرين الحجري الحديث والنحاسي، عدد خاص بالقدس، الندوة الدولية القدس في التاريخ، وزارة الثقافة ـــ المديرية العامة للآثار والمتاحف، سوريا، (2009-2010).

مواقع الشبكة العنكبوتية:

1. مجلة العلوم (الكويت)، ترينكاوس ودورآته، مَن هم النياندرتاليون؟، المجلد 19، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، أغسطس ـــ سبتمبر 2003.

- **http://www.oloommagazine.com/Articles/ArticleDetails.aspx?ID=574**

2. مجلة العلوم (الكويت)، ڤاندرميرش وبار ـ يوسف، الإنسان الحديث في بلاد المشرق، المجلد 11، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، يناير 1995.

- http://www.oloommagazine.com/Articles/ArticleDetails.aspx?ID=4

3. مجلة Nature «الطبعة العربية» (المملكة العربية السعودية)، إوين كالاواي، فصيل من البشر يجاور إنسان النياندرتال، 22 مارس/ آذار 2015.

- http://arabicedition.nature.com/journal/2015/02/517541a

4. مات ووكر، البشر الذين كانوا يأكلون رؤوس الأفيال،28 يونيو/ حزيران 2016.

- http://www.bbc.com/arabic/scienceandtech/2016/06/160627_ver_earth_the_people_who_ate_elephant_heads

5. ويل دنهام، اكتشاف جمجمة للإنسان الأول قد تسلّط الضوء على فجر التاريخ البشري، 28/ 06/ 2015.

- http://ara.reuters.com/article/internetNews/idARAKBN0L12O920150128

6- Paul Rincon, Early human fire skills revealed,29/04/2004

- http://news.bbc.co.uk/2/hi/science/nature/3670017.stm

أحمد الدبش

- باحث فلسطيني في التاريخ القديم.
- من مواليد القاهرة 1976، ويعود بأصوله إلى قرية القبيبة قضاء الرملة.
- حاصل على ليسانس حقوق ـ جامعة عين شمس 1998.
- عضو نقابة المحامين المصريين، وعضو اتحاد المحامين العرب.
- أثارت أبحاثه في تفكيك التوراة عديداً من النقاشات.
- له مواقف رافضه لنهج أوسلو الاستسلامي، والصلح مع الكيان الصهيوني.

من مؤلفاته:

- موسى وفرعون في جزيرة العرب، ط1، دمشق، دار خطوات للنشر والتوزيع، 2004.
- كنعان وملوك بني إسرائيل في جزيرة العرب، ط1، دمشق، دار خطوات للنشر والتوزيع، 2005.
- عورة نوح ولعنة كنعان وتلفيق الأصول، ط1، دمشق، دار خطوات للنشر والتوزيع،2006.
- المسيح النبي المفقود، ط1، القاهرة، هفن، 2009.
- سلسلة الرواية التاريخية للأخر ــ رؤية فلسطينية، (1)، الآثار تكشف زيف الحق التاريخي الإسرائيلي، ط1، دمشق، النايا للدراسات والنشر والتوزيع ــ صفحات للنشر والتوزيع، 2010.
- سلسلة الرواية التاريخية للأخر ــ رؤية فلسطينية، (2)، نيوت غينغريتش وإسكات التاريخ الفلسطيني، ط1، دمشق، النايا للدراسات والنشر والتوزيع، 2011.
- سلسلة التاريخ اليمني المجهول، الجزء الأول: اليمن الحضارة والإنسان ..... بحثاً عن الجذور، ط1، دمشق، النايا للدراسات والنشر والتوزيع، 2013.
- اختطاف أورشليم، ط1، دمشق، النايا للدراسات والنشر والتوزيع، 2013.
- معذرة آدم لست أول البشر، ط1، القاهرة، دار عشتار للنشر والتوزيع، 2014.
- يهودية الدولة الحنين إلى الأساطير، ط1، القاهرة، دار عشتار للنشر والتوزيع، 2015.
- بحثاً عن النبي إبراهيم، ط1، دمشق، صفحات للدراسات والنشر والتوزيع، دمشق ـ الأمارات، 2016.